بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

للقصة عادة تأثير عجيب في نفس السامع والقارئ، وما أكثر ما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز من القصص النبوي حيث قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وكان النبي ﷺ يستشهد بالقصة في أحاديثه ليقرب المعنى في نفوس أصحابه ومن يحدثهم، وليس ببعيد حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ بسرد القصة المشهورة بحديث أم زرع.

وفي معترك الحياة الأسرية تمر بنا العديد من القصص والحكايات بعضها يستمر تأثيره لفترة بسيطة لا يتعدى ساعات أو أيام أو أسابيع وقد يستمر شهورًا، وبعضها يستمر بلا نهاية وتترك تأثيرًا عميقًا في النفس سواء كان التأثير سيئًا أو مفرحًا فهي في كلتا الحالتين تترك في النفس أحاديث تتراود بين الحين والآخر.

وفي هذا الكتاب نستمع لهذه الأحاديث التي تراود كل فرد في الأسرة ليعبر عن مشاعره بالطريقة التي تحلو له وينفس عما بداخله من ألم أو فرح لنأخذ منها العبرة ونستشعر بهموم الآخرين ونعطي لأنفسنا الوقت والفرصة لإصلاح ما قد نهدمه بأيدينا أو نقيمه ونرفعه حتى تستمر سفينة الحياة على الوجه الصحيح بلا ألم أو شحناء أو بغضاء.

من باب الأمانة العلمية هذا العمل يرجع الفضل فيه إلى الكُتاب الذين سطروا بأقلامهم هذه القصص وما أنا إلا جامع لهذه القصص الرائعة التي أرى أنها ستفيد مجتمعات كثيرة لم تطلع عليها ولم تقرأها في وقتها فاندثرت مع توالي غيرها ولم تنشر إلا في بلادها فقط ولم يقرأها قراء آخرين في كثير من البلدان العربية المسلمة التي انتشرت فيها الحوادث الأسرية وارتفاع معدلات الطلاق والعقوق والجريمة الأسرية التي استشرت في كل مكان ففضلت أن أطرح هذه القصص من جديد للقارئ بتصرف يسير دون المساس بأصل القصة وذلك لكي تعم الفائدة المرجوة منها.

فأتوجه بالشكر لمن خطوا بأيديهم هذه العلامات المضيئة للأسرة المسلمة في كل مكان سائلًا الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء على ما قدموه وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتهم.

كما أتوجه بالشكر إلى القائمين على نشر العمل في كل مكان سواء المجلات أو دور النشر التي ترعى الأعمال الجيدة والهادفة التي تعود بالنفع على المسلمين في كل مكان، وأطالبهم بإعادة نشر مثل هذه النوعية من القصص لكي تعم الفائدة وتنتشر وتساهم بشكل إيجابي في الحد من السلبيات الكثيرة التي امتلأ بها المجتمع الإسلامي والعربي.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

نبيل بن محمد محمود

تهمة أم المدمن

أمٌّ في قفص الاتهام مع ابنتها.. والتهمة الموجهة! قتلت ابنها بمشاركة ابنتها يقول لها القاضي: القانون الإعدام.. جريمة قتل.. مع سبق الإصرار والترصد.. تكلمي قتلتي ابنك؟ لا تتكلم.... يوجه القاضي الكلام إلى الأخت: قتلتي أخاك؟ لا تتكلم.... يحاول القاضي.. لا تتكلم..

ينظرُ إليها القاضي فيراها امرأة وقور.. الحجاب على رأسها.. ووجهها الشاحب الحزين عليه قهر.. قهرُ هذه الأيام.. وكبت هذه الأحزان.. ودموعها تنحدر.. لكنها لا تتكلم!!!.

وفي حجرة المداولة.. رفض القاضي رئيس المحكمة أن يصدر حكمًا مهما كانت عقوبته دون أن يسمع هذه الأم.... قال القاضي لمعاونيه: إنني أشعر أن هذه المرأة على حدٍ كبير فاضلة.. وأن هناك أسبابًا قد دفعتها إلى ارتكاب هذه الجريمة..إذا كانت قد ارتكبت فعلًا جريمة، وفتح القاضي الملف من جديد.. وأخذ يقرأ... وإذا الذي بلغ عن الجريمة طفلة صغيرة ابنت بنت المتهمة (حفيدتها).. قال: الخيط عند الطفلة!.

أمر بإحضارها في غرفةٍ جانبيةٍ.. وأحضر لها الحلاوة.. وأحضر لها بعض الألعاب.. وبدأ يمازحها حتى اطمأنت إليه.. استدرجها في الحديث.. أتحبين خالك المقتول؟ قالت: لا... لماذا؟ لأنه يضرب جدتي ويضرب أمي.. لماذا يضرب جدتك ويضرب أمك؟ لأنه يريد المال.. لماذا يريد المال؟ لا أدري! لكن جدتي تقول له: إنك مؤمن وإيمانك سينهيك ويقتلك.. فقال القاضي: لا يا ابنتي الإيمان لا يقتل صاحبه ولا ينهيه.. لعل جدتك تقول «إنك مدمن وإدمانك سيقتلك» قالت: نعم.. مدمن.. مدمن.. هذه الكلمة التي كانت جدتي تقولها له.

وبدأت الطفلة تروي ليلة الجريمة.. بكلمات بسيطة ورعب شديد.. وهنا أمسك القاضي الخيط!. وأخذ يبحث في القضية.. وواجه الأم.. قال: لا داعي للصمت.. علمنا أن ابنك مدمن.. ما حكايته؟.

قالت: «مات أبوه وتركه وأخته عندي.. ثم بعد ذلك تعبت في تربيتهما وبذلتُ كل ما أملك.. تزوجت البنت.. وبقي الولد.. فشل في دراسته والسبب أنه بدأ يشرب الدخان».

انظروا.. والدٌ يستدعيه الناظر بعد عثور السجائر في جيب الولد.. يقول له: أيها الوالد عثرنا في جيب ابنك على السجائر.. يشربها في المدرسة!. فالتفت الوالد الغبيُّ.. وقال: ألم أقُل لك لا تشرب في المدرسة.. اشرب في كل مكان إلا في المدرسة.. انظروا إلى أي درجة.! الذين يتعاطون المخدرات الخطوات الأولى في شرب السيجارات... لأن الطفل لا عقل له.. سيجرُّ من خلال التدخين إلى المخدرات.. سيأتيه من يقول لهُ: جرِّب.. وسيجرب لأنه يدخن.. يعود القاضي.. لا داعي للصمت.. الطفلةُ اعترفت.. الابن مدمن.. قالت: نعم.. دخلتُ عليه في غرفتهِ يومٍ وإذا به يعطي نفسه حقنة الهيروين.. فصفعتهُ وضربتهُ.. ففرّ.. ثم عاد بعد ذلك ينهبني ويسلب كل ما لدي.. حتى تركني على الحديدة.. ثم دخل علي يومًا مزق ثيابي يريد أن يهتك عرض أمه... تقول: وكنتُ لا أستطيع دفعه فأنا امرأة.. ففررتُ من بين يديه.. وخرجت في ظلام الليلِ شبه عارية... أجري إلى بيت ابنتي.. وضربت الباب.. فذهلت! لمّا رأت ثيابي ممزقة... مالك يا أماه؟ قالت: أخوك هجم عليّ ليهتك عرضي.

فسكنت في بيت ابنتها شهرًا تترصد أخبار المدمن في بيته.. لعلهُ يموت.. لعلهُ يحترق.. لعله ينتحر.. فترتاح.. وبعد مرور الشهر قامت المسكينة وبُنيتها وحفيدتها لتسمع أخباره... ودخلت البيت فإذا هو وكر مخيف ... السجائر والزجاجات والغبار والقذر والنفايات والعفن.. وقد باع معظم الأثاث وليس هو في البيت.. فدخلت

المسكينة ترتب الأثاث.. وترتب البيت ومن التعب باتت تلك الليلة في البيت.. وجاء الوحش آخر الليل.. فتح الباب ودخل.. وإذا به يرى أمه وأخته وبنت أخته.. فاستفاقت الأم والأخت عليه وهو يراود الصغيرة.. يجرها إلى غرفته ليهتك عرضها.. فجرت الأم إلى المطبخ وأحضرت سكينًا.. ولا تدري كم طعنة طعنته.. حتى خرَّ يتلبط بدمائه.

ثم أفاقت الأم من ذهولها.. فإذا هو جثة هامدة.. فماذا تفعل؟ انتظرت لحظة.. ثم خافت من الأمن ومن الفضيحة.. فحفرت له في البيت ودفنته.. وبعد أيام تكلمت الطفلة مع الأطفال في الشارع.. فعلم الناس.. فبلغوا عنها.. فجاءت الشرطة فحفروا في البيت وأخرجوا الجثة.. اتهموها بالقتل.. وإذا بها تنطق أمام المحكمة لأول مرة.. تقول: أنا القاتلة وأنا القتيلة.. أنا الجروح وأنا السكينة... أنا التي سكتُّ عليه يوم شرب أول سيجارة... هذه هي نهاية المخدرات... والسكوت على المخدرات.. يا حضرة القاضي إن كان هناك حكمٌ بالإعدام.. فعلى تاجر المخدرات وزارع المخدرات ومروج المخدرات.. همُ القتلة.. هم شركاء الجريمة.. هذه هي المآسي التي تفتك بهؤلاء الشباب... كان بإمكان هذا الشاب أن يكون نافعًا لأمته.. وأن يكون خادمًا لبلده.. عابدًا لربه.. لكن المخدرات أردته وأسرته وقضت عليهم... هذا هو الجيش الخفي الذي يغزو أمتنا ويدمر ديننا وأوطاننا.. فحاربوه.... حاربوه.. وحاربوا من يبيعه ويروجه.. فإلى الله نشكو فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبعد المداولة.. دخل رئيس المحكمة ووقف الحاضرون. وجلست هيئة المحكمة.. وبدأ القاضي في النطق بالحكم.. وساد صمت رهيب في القاعة. وبدأ يتلو حيثيات الحكم.. ولهذه الأسباب حكمت المحكمة ببراءة المتهمة وابنتها(*)...

(*) «المدمنون يعترفون» للكاتب/ وجيه أبو ذكري.

ادخرتك فخذلتني

أسميته (راشدًا) متفائلة برشده ونضجه، وأراد والده تسميته (ناصر) (هذا اللي بيناصرني ويساعدني بعد الله) فكان رسميًا وفي الوثائق (ناصر) وفي البيت (راشد) ولكن لم يكن له من اسميه نصيب.

هو الذكر الوحيد لي بين ست بنات، لم يكن مدللًا كمن هم على شاكلته حيث توفي والده وهو صغير فتحمل المسئولية مبكرًا ونضج قبل أوانه، ولكنه نضج يمازجه دخن.

كبر ولم يعد قاصرًا فآلت إليه أعمال الشركة الصغيرة التي كان يديرها والده حيث آثرنا ألا نقتسمها لتبقى دخلًا ثابتًا لنا.

لم يلعب (ناصر) بالمال ولم يبعثره، بل كان حكيمًا حسن التصرف يحرص على تنمية المال واستثماره، ولكن المال لم يكن كل شيء في حياتنا إنه لم يجلب السعادة لأحد قط.

لقد جعلت - والحمد لله - لابني مكانًا مرموقًا في العائلة، فلم يكن تربية حريم كما يقول البعض ومع ذلك فهو لا يأبه بي ولا يهتم بحالي وأخواته.

إن هناك قضايا متعلقة بالإرث تحتاج منه إلى مراجعات بسيطة لبعض الجهات المسئولة ثم ينتهي كل شيء ومع ذلك مازالت تلك الأوراق حبيسة الأدراج والقضايا معلقة، الحجج كثيرة كلها واهية إذ لا يمكن أن يبررها قول (مشغول) وهو يتهرب ولا يبالي وأخواته يطالبن بنصيبهن من الإرث وحصتهن من أرباح الشركة، وأنا حائرة ممزقة بين الاثنين، إن أرضيتهن سخط، وإن أرضيته سخطن.

وكذا هذه الشركة التي حرصنا على تماسكها مازالت هناك بعض المعاملات المتعلقة بها وأيضًا أوراق تخص تقاعد والده من عمله السابق، وكذا بعض الديون لنا عند آخرين كلها ينقصها توقيع أو صورة أو شهادة ومازالت قابعة في الخزانة يعلوها الغبار.

ولدي راشد أنت عائلنا الوحيد وسندنا وقوتنا وناصرنا بعد الله سبحانه وفي هذه الدنيا الموحشة.. مَن لنا غيرك بعد الله حتى نلجأ إليه في تدبير شئوننا الخاصة، لا الأخوال ولا الأعمام يقومون مقام رجل مكتمل النضج حصيف الرأي، فطنًا.

حين أراد ذلك الشاب أن يتقدم لخطبة أختك (نوره) هل تذكر؟ لقد تكبد المشاق حتى يضرب معك موعدًا .. بحث عنك في المكتب، في العمل، في المنزل، وأخيرًا ترصد لك وأنت عائد من المدرسة بأبنائك، كلمته وقابلته ووعدته خيرًا وسألته الإمهال حتى تتحرى أكثر ومرت الأيام تلو الأيام.. ناصر.. عساك سألت عن الرجل.. والله يا أمي ما لقيت وقت، مشغول حتى رأسي.. طيب اتصل يا ولدى بالتليفون واسأل عنه في عمله وأنت في مكتبك، وإلا أوصِ أحدًا يسأل عنه ويجيب أخباره... لا، لا يمكن، لازم أنا اللي أتحرى وأتأكد من المعلومات بنفسي، لا تنسي إن أخواتي أمانة في رقبتي.

واقتنعت بكلام ولدى الراشد وانتظرت أسابيع ثم شهورًا، واتصلت والدة الشاب مستفسرة وخجلت منها وصرت في موقف لا أحسد عليه فماذا عساني أقول؟ هل أقول أن ابني لم يتحر عنكم؟ أم أقول لم يجعل الله بيننا نصيب؟ أم أعيب الولد، شاب خلوق وعليه سيما الصلاح وشهادة عالية ومركز جيد إنها فرصة كبيرة ولكن... أثرت الحل الثاني وأغلقت السماعة.

وحين رأيت ناصرًا أعلمته فكان رد فعله كالصاعقة علي (لماذا تتصرفين دون علمي لماذا تردين عليها دون الرجوع إلي؟ أنا اليوم كنت في حيهم وسألت عنه الكل أثنى عليه خيرًا حتى إمام المسجد قال: إنه صديقي، وكذا جهة عمله وأصدقاؤه أثنوا عليه.. لقد..).

(كفى يا بني.. خمسة أشهر تسأل عن الرجل لو كان يسكن في أقاصي الدنيا لكان معك من الوقت ما يكفي للسفر والسؤال عن حاله ثم العودة وترتيب الأمور كلها، الناس كانوا مستعجلين ولكن حين رأوا أختك تريثوا وصبروا صبر أيوب حتى

يظفروا بها ولا تضيع من بين أيديهم ومع ذلك فللصبر حدود، وجمال أختك لم يكن ليشفع لك على هذا التأخير كله.. كفى يا ناصر لقد ضيعت علينا فرصة كبيرة.. وأختك عسى الله يجبر بخاطرها).

إن كلامك دائمًا جميل ولسانك فيه عذوبة وحديثك تغلفه اللباقة ولكن حين الفعل لا أجد شيئًا، هذه (شيماء) عانت من زوجها ما الله به عليم، وصبرت وتحملت الأذى ولكن حين كشر الذئب عن أنيابه وغاص في وحل المخدرات والرذيلة بلغ السيل الزبد ولجأت إليك بعد الله لتفك أسرها من براثنه وكالعادة.. طيبت خاطرها بكلمتين وطمأنت قلبها ولكن أتبعت ذلك بوعود ومماطلة وتسويف. وحين تعبت ونزل بها داء السكري من كثرة الهم والتفكير في مصيرها ومصير هؤلاء الأولاد وتعلقت ذلك اليوم بثوبك تبكي وتنتحب، حينها فقط تحركت بعد سنتين من الهم والغم، وهو فقط موعد تقابل فيه الخصم في ردهات المحكمة وانتهى كل شيء.

لا أعرف لماذا هذا الإهمال واللامبالاة.. أمورنا تتعقد وتتأخر ولا تنجز في وقتها وأنت تسعى في كل ما يخصك وتنهيه على وجه السرعة، فما الأمر؟ لقد ادخرتك ليوم الشدة فخذلتني!!

أنت تتولى شئوننا، ونحن النساء ضعفاء، والرسول ﷺ حرَّج حق الضعيفين المرأة واليتيم، فاسمع وتدبر وفقك الله وهداك(*).

«أمك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة السعودية» بتصرف يسير.

عن العقوق حدث ولا حرج

أوامر زوجة الابن:

شيخ كبير تجاوز السبعين من العمر أصابه مرض شديد قالت زوجة الابن الأكبر: أنا على وشك ولادة ووالدك دائمًا أمامي وأشعر بانزعاج وهو أمامي.. يعني تريد هذه الزوجة حلًا لهذا الأب الكبير فاتصل الأخ الأكبر على من تحته فوافقا على أن يذهبا به إلى دار العجزة.

أخذا معهما والدهما وهو لا يدري أين سيذهب قالوا له: سنذهب بك إلى المستشفى كي يراعوك هناك وفعلًا ذهبوا به لكن إلى دار العجزة.. دخل الأب ولم يأتوا له إلا بعد شهر كامل توالت الأحزان ودمعت العينان!!!

أنتظر ابني:

يقول الراوي: كنت على شاطئ البحر فرأيت امرأة كبيرة في السن جالسة على ذلك الشاطئ تجاوزت الساعة ١٢ مساءً فقربت منها مع أسرتي ونزلت من سيارتي... أتيت عند هذه المرأة، فقلت لها: يا والدة من تنتظرين؟

قالت: أنتظر ابني ذهب وسيأتي بعد قليل... يقول الراوي: شككت في أمر هذه المرأة.. وأصابني ريب في بقائها في هذا المكان. الوقت متأخر ولا أظن أن أحدًا سيأتي بعد هذا الوقت.

يقول: انتظرت ساعة كاملة ولم يأت أحد... فأتيت لها مرة أخرى فقالت: يا ولدي.. ولدي ذهب وسيأتي الآن. يقول: فنظرت فإذا بورقة بجانب هذه المرأة. فقلت: لو سمحت أريد أن أقرأ هذه الورقة. قالت: إن هذه الورقة وضعها ابني وقال: أي واحد يأتي فأعطيه هذه الورقة.

يقول الراوي: قرأت هذه الورقة... فماذا مكتوب فيها؟

مكتوب فيها: (إلى من يجد هذه المرأة الرجاء أن يأخذها إلى دار العجزة).

عجبًا لحال هؤلاء!!!.

اللهم احرمهم من الجنة

هذا رجل عنده عَمٌّ أصابه الكبر الشديد وتجاوز التسعين من العمر فأصبح في بعض الأحيان يفقد وعيه ويفقد الذاكرة حتى يصبح كالمجنون تذهب الذاكرة وتعود.. لقد قام بتزويج أبنائه الثلاثة وأسكنهم في نفس البيت ولكن كانت زوجات أبنائه قد تضايقوا من وجود هذا الأب..فوضع البنات خطة لطرد هذا الأب وأقنعا الأزواج بالذهاب به إلى دار العجزة وفعلًا استجاب هؤلاء الأبناء، عليهم من الله ما يستحقون وذهبوا بوالدهم إلى دار العجزة.

وقالوا للمسئولين: إن هذا الرجل وجدناه في الطريق ونريد أن نكسب الأجر فوضعناه عندكم في دار العجزة.

رحبت دار العجزة بهذا الأمر على أنه فعلًا رجل في الطريق ليس له أحد إلا هؤلاء جاءوا به إلى هذا المكان.

قالوا للبواب المسئول: إذا مات هذا الرجل فهذا رقم البيت ورقم الجوال فاتصل علينا.

ما هي إلا لحظات وتعود الذاكرة إلى هذا الأب وينادي أبناءه يا فلان يا فلانة احضروا لي ماء أريد أن أتوضأ.

جاء المسئول والممرضين عند هذا الأب الكبير قالوا: أنت في دار العجزة.

قال: متى أتيت إلى هنا؟

قالوا: أتيت في يوم كذا وكذا وذكروا أوصاف الأبناء الذين جاءوا به.

قال: هؤلاء أبنائي ورفع يديه ودعا عليهم.. اللهم كما فعلو بي هذا الفعل اللهم فأرني وجوههم تلتهب نارًا يوم القيامة. اللهم أحرمهم من الجنة يارب العالمين. وينادي المدير المسئول ويكتب جميع عقاراته وأملاكه وقفًا لهذه الدار ولم يتحمل هذه

الصدمة وتوفي مباشرة. فرح الأبناء بعدما اتصل عليهم هذا البواب وأعطوه مبلغًا من المال فجاءوا فرحين ولكن تفاجئوا إذا برجال الأمن يوقفونهم عند المحكمة ليخبروهم أن هذه الأملاك كلها أصبحت ملك لدار العجزة ويجب عليهم أن يخرجوا من هذه الشقق التي كانوا يسكنون فيها هذا في الدنيا قبل الآخرة(*).

❀❀❀

(*) موقع «يا له من دين» للشيخ/ سلطان العمري.

قتلت سعادتي

هذه قصة يرويها أحد بائعي المجوهرات يقول: دخل عليه في المحل رجل وزوجته وخلفه أمه العجوز تحمل ولده الصغير.. يقول: أخذت زوجته تشتري من المحل و تشتري من الذهب.. فقال الرجل للبائع: كم حسابك؟ قال البائع: عشرون ألف ومائة.. فقال الرجل: ومن أين جاءت المائة... قال: أمك العجوز اشترت خاتم بمائة ريال.. فأخذ ابنها الخاتم ورماه على البائع..

فقال: العجائز ليس لهن ذهب.. ثم لما سمعت العجوز هذا الكلام بكت وذهبت إلى السيارة.. فقالت زوجته: ماذا فعلت؟ ماذا فعلت لعلها لا تحمل ابنك بعد هذا.. عياذًا بالله كأنها خادمة عندهم.. فعاتبه بائع المجوهرات.. فذهب الرجل إلى السيارة وقال لأمه: خذي الذهب إذا تريدين خذي الخاتم إن أردت فقالت أمه: لا والله لا أريده ولا أريد الخاتم ولكني أريد أن أفرح بالعيد كما يفرح الناس فقتلت سعادتي سامحك الله!

دعوة على أستار الكعبة

هذا رجل فاجر عاصٍ لله عاق لأبيه اسمه (منازل).. أتاه أبوه يومًا من الأيام فأمره بالطاعة وأمره بالإحسان وأمره بالاستجابة لله عَزَّ وَجَلَّ تعرفون ماذا فعل.. لطم أباه على وجهه فذهب أبوه يبكي..

وقال: والله لأحج إلى بيت الله الحرام وأدعو عليك هناك.. فحج الأب إلى بيت الله الحرام وتعلق بأستار الكعبة ثم رفع يديه وقال: يا مَن إليه أتوا الحجاج قد قطعوا أرض الملام من قربي ومن بعدي، هذا منازل لا يرتد عن عققي وخذ بحقي يا رحمن من ولدي، وسل منه بحول منك جار به يا ليت قد لم يولد ولم يلدي. ما أنزل الوالد يديه إلا و شل الله الابن وأصبح مشلولًا إلى أن مات(*).

❁❁❁

(*) شبكة المشكاة.

مستشارة الخراب

لقد كنت غبية طوال تلك السنين، لكني لم أدرك ذلك إلا الآن، كنت عمياء عن رؤية الحقيقة صماء عن سماعها، كنت ألعوبة في يد أختي، نعم أختي الوحيدة التي تكبرني بعشر سنوات والتي تزوجت قبلي بزمن طويل، زوجها رجل طيب ساذج ضعيف الشخصية ترك لها زمام الأمور تدبر وتخطط وتقرر؛ فأختي لها شخصية قوية متسلطة منذ صغرها، كانت تفرض آراءها على من حولها وتجبرهم على الانصياع لها والاقتناع برأيها بحجة قوية ولسان طويل.

كانت أول نصائحها لي ليلة عقد قراني، سهرت معي حتى ساعات الصباح الأولى تحثني على التمسك برأيي وفرض شخصيتي (أفهميه أنك لست خادمة، بل أنت المخدومة، لا تدعيه يذلك، أشعريه أنك مدللة في بيت أهلك وأنك اعتدت العيش هكذا، صدقيني إن لم تكوني شخصيتك من الأيام الأولى فلن تستطيعي فعل ذلك بعد، لا تبدي الود لأهله حتى لا يحقروك، عامليهم بشكل رسمي (سلام وكيف الحال) اجعلي من نفسك أول اهتماماته، ثم أمه وأهله لا تفعلي... لا تقولي...) نصائح كثيرة حرتُ فيها وأبحرت معها أفكر في مضامينها، فقطعت أختي على حبل التفكير قائلة (أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، اسأل مجرب ولا تسأل حكيم، الرجال ما ينفع معهم إلا هذا).

وكانت كل مرة تزودني بعدد من نصائحها وتجاربها حتى امتلأت بها وتشربتها، كنت صغيرة وجاهلة وسريعة التأثر، ولم أجد أحدًا ينصحني غير أختي هذه، وكانت حياتها هي المثال الحي أمامي فأردت أن أكون نسخة كربونية منها وحقًا فعلت.

تزوجت، كان شابًا طيبًا، متعلمًا يسكن قريبًا من أهله ذا خلق كريم عاملني معاملة حسنة، لكن أختي قالت: إن كل الرجال يبدون في البداية طيبين حتى نبلو أخبارهم، فانتظرت ما تأتي به الأيام!!

ذات يوم كنت أود الذهاب إلى السوق، كان يومًا حارًا، فرفض زوجي (أجِّلي هذا الغرض حتى حين فالجو في الخارج حار جدًا) فتمسكت برأيي ظانة أن هذه فرصتي لأفرض شخصيتي، ودار بيننا جدل عقيم فقلت (يجب أن نذهب الآن)، وهنا بدت علامات التجهم والضيق على وجهه وصار يكرر (يجب، الآن) صرت تأمرين وأنا فقط أنفذ، قلت: لا يعني لا)، وخرج ضاربًا الباب خلفه بكل قوة، وفار الدم في عروقي إذ لم أصل إلى بغيتي، وفي الحال اتصلت بأختي أشكو لها الأمر، فلقد خفت عليه ومنه، فهدأتني من جانب وأثارتني من جانب آخر (يا غبية خليه يطلع مصيره إلى البيت، لكن أنت خليك زعلانة ولا تكلميه واتركيه بدون عشاء، لازم يحس أنك واثقة من كل كلمة قلتها، لا تتراجعي ولو زاد عليك في الكلام قولي: أروح لأهلي).

ترى ماذا حصل؟ كبرت المشكلة، وهي كانت صغيرة، وتضخمت وساءت العلاقات بيننا حتى تدخل والدي وأعاد المياه إلى مجاريها. ولكنني لم أتب فلقد كنت ناقصة الإيمان وإلا فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وأنا لدغت عشرات المرات.

مواقف بسيطة كهذه أجعل منها قضايا وأزمات، وأختي تحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة تريدني أن أكون مثلها، وما علمت أن زوجي غير زوجها، لقد صرت أنكد عليه حياته قائمًا وقاعدًا، أريده ألا يخرج عن طوعي وإشارتي، أحاول أن أتدلل عليه، أضغط بكل قوتي حتى لو كان الأمر تافهًا، أكدر مسامعه حين أريد السوق أو الذهاب إلى حديقة أو حفلة أو غيرها حتى يستجيب لي.

كنت عند أهلي ذات يوم وجاء زوجي مبكرًا على غير عادته ليأخذني فرفضت بحجة الجلوس مع أهلي وأختي التي لم تحضر ذلك اليوم إلا متأخرة. كان زوجي متعبًا ولم يكن لديه الرغبة في العودة مرة أخرى، ولكن مع إصراري وإلحاحي قال بلهجة حادة (اجلسي حتى يسمح خاطرك)، وفعلًا جلست وما عدت لبيتي إلا كالمرة الأولى.

أحيانًا أجلس وأفكر في حالي، أين الراحة والسعادة التي تكلمت عنها أختي؟ وأين مملكتي الخاصة؟ كل يوم خناق وصراخ لا تلتقي وجوهنا إلا وهي عابسة هو يريد شيئًا وأنا أخالفه وعندما يرفض أمرًا أصر عليه، أخرج مع أهلي إلى حيث يريدون دون أن أستأذن، لا أصل أهله إلا نادرًا، أصرف ببذخ زائد في كل اتجاه... مع كل هذا لم أجد السعادة، بل صارت حياتي كالعلقم مُرة لم يعدلها طعم الألفة والمودة، نكد وكدر، وجفاء، لم أسعد زوجي ولم أحقق مطلبي، فكثر خروج زوجي من البيت وكثر صمته فيه، وخيم الملل على حياتنا، ومازالت أختي تمطرني بنصائحها الغالية.

ولكن حدثت الطامة التي غيرت حياته وقلبت موازيني وأعادت عقلي إلى مكانه، لقد تزوج زوجي بأخرى فلم يعد دلالي يعجبه، ولا قوة شخصيتي تجذبه، (أنا أريد امرأة لا رجلًا في البيت، أريد ظبية لا لبؤة، تزوجت أبحث عن الحنان والاستقرار فقلبك مقفر مثل لسانك، لقد مللتك ومللت استبدادك).

الآن هل أتراجع عن تلك النصائح التي تشربتها؟! هل أمحو هذه النسخة؟ نعم ولكن بعد ماذا؟!.

«أختكم»

قال أبو الدرداء رضي الله عنه لأم الدرداء: «إذا غضبت فرضيني، وإذا غضبت رضيتك، فإن لم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق»(*).

(*) مجلة «الدعوة السعودية».

أحلام الطفولة ترجمة للواقع

جلست الأم ذات مساء تساعد أبناءها في مراجعة دروسهم...وأعطت طفلها الصغير البالغ الرابعة من عمره كراسة للرسم حتى لا يشغلها عن ما تقوم به من شرح ومذاكرة لإخوته الباقين..وتذكرت فجأة أنها لم تحضر طعام العشاء لوالد زوجها الشيخ المسنّ الذي يعيش معهم في حجرة خارج المبنى في حوش البيت..وكانت تقوم بخدمته ما أمكنها ذلك والزوج راضٍ بما تؤديه من خدمة لوالده والذي كان لا يترك غرفته لضعف صحته...أسرعت بالطعام إليه..وسألته إن كان بحاجة لأي خدمات أخرى ثم انصرفت عنه. عندما عادت إلى ما كانت عليه مع أبنائها..لاحظت أن الطفل يقوم برسم دوائر ومربعات.ويضع فيها رموز..فسألته: ما الذي ترسمه يالحبيب؟ أجابها بكل براءة: إني أرسم بيتي الذي سأعيش فيه عندما أكبر وأتزوج. أسعدها رده...فقالت: وأين ستنام؟؟ فأخذ الطفل يريها كل مربع ويقول هذه غرفة النوم..وهذا المطبخ. وهذه غرفة لاستقبال الضيوف...وأخذ يعدد كل ما يعرفه من غرف البيت...وترك مربعًا منعزلًا خارج الإطار الذي رسمه ويضم جميع الغرف.. فعجبت..وقالت له: ولماذا هذه الغرفة خارج البيت؟ منعزلة عن باقي الغرف..؟ أجاب: إنها لك سأضعك فيها تعيشين كما يعيش جدي الكبير.. صعقت الأم لما قاله وليدها!!!.

هل سأكون وحيدة خارج البيت في الحوش دون أن أتمتع بالحديث مع ابني وأطفاله، وأنس بكلامهم، ومرحهم، ولعبهم، عندما أعجز عن الحركة؟؟ ومن سأكلم حينها؟؟وهل سأقضي ما بقي من عمري وحيدة بين أربع جدران دون أن أسمع لباقي

أفراد أسرتي صوتًا؟؟ أسرعت بمناداة الخدم....ونقلت وبسرعة أثاث الغرفة المخصصة لاستقبال الضيوف والتي عادة ما تكون أجمل الغرف وأكثرها صدارة في الموقع...وأحضرت سرير عمها، (والد زوجها)..ونقلت الأثاث المخصص للضيوف إلى غرفته خارجًا في الحوش، وما أن عاد الزوج من الخارج تفاجئ بما رأى..وعجب له. فسألها ما الداعي لهذا التغيير؟؟أجابته والدموع تترقرق في عينيها..:إني أختار أجمل الغرف التي سنعيش بها أنا وأنت إذا أعطانا الله عمرًا وعجزنا عن الحركة وليبق الضيوف في غرفة الحوش، ففهم الزوج ما قصدته وأثنى عليها لما فعلته لوالده الذي كان ينظر إليهم ويبتسم بعين راضية.. فما كان من الطفل إلا أن مسح رسمه... وابتسم(*).

❁❁❁

(*) موقع «طريق الإيمان».

عين المرأة العاقر

ما أصعب أن يكون المرء حديث الناس وفاكهة مجالسهم بلا ذنب اقترفه ولا جرم ارتكبته، لقد صرت لهذا السبب أكره الاختلاط بالناس والخروج من بيتي.. صادقت العزلة وألفتها وأحببت الوحدة.

اثنا عشر عامًا من العذاب والهم والألم ممزوجة بالصبر، والحمد لله وحده على كل حال واللهم لا اعتراض، نظرات الناس تقتلني، خناجر تطعن قلبي، وسكاكين تخترق فؤادي، وخصوصًا أولئك الفضوليين – وما أكثرهم وما أثقلهم – والسبب أني امرأة لا تنجب (عقيم).

مجالس النساء تغص بالعشرات كل واحدة تقدم نصيحة، وتعرض نوعًا من العلاج، وأخرى تدل على طبيب ماهر كان له الفضل بعد الله في شفاء فلانة وفلان سواء طبيبًا شعبيًا أو أكاديميًا. وثالثة تحقق وتتحرى وتبحث لتصل من خلال الكلمات التي تجذبها من فمي جذبًا إلى نتيجة أكيدة (السبب مني أو من زوجي) كل هذا الكلام في جو خانق ثقيل، فالنساء لا يعرفن السرية.

ربما أن هذا كله يهون فقد يقول البعض أن من باب محض النصح والخير ولكن لحساسية موقفي صرت أتضايق، أقول ربما!! وأتغاضى ولكن الذي يقلقني أني صرت مصدر خوف للبعض، فزوجة أخي القريبة مني صارت تزورني وحدها دون الأطفال، وعندما أزورها تترك أطفالها في مكان قصي في البيت مع ألعابهم وتهددهم إن هم أتوا للسلام علي (تخشى عليهم من عيني) لقد كنت أحبهم وأجلب لهم الهدايا والحلويات وأفرح بالجلوس معهم لأنهم أبناء أخي قبل كل شيء وليس لأنهم أطفال فقط.

قريباتي وصديقاتي اللاتي يلدن يحسبن لزيارتي لهن في النفاس ألف حساب، فالوليد يخبأ لحين انصرافي وعندما أطلبه للسلام عليه وتقبيله والدعاء له تبرز علل كاذبة (توه نائم – نخاف عليه من هواء المكيف – ما غيرت ملابسه) وهكذا.

ولقد كنت عند إحداهن فلما وليتها ظهري متجهة إلى الباب الخارجي سمعتها تنادي الخادمة لتحضر وليدها لتراه بقية الزائرات.

وبعض النساء لا تحاول أبدًا ذكر محاسن الأطفال ولا تحب أن تمتدحهم في وجودي تخشى من (العين الحاسدة) وعندما تدخل امرأة إلى المجلس ومعها طفل ممسك بها أو تحمله تتجه الأنظار نحوي ويتعالى ذكر الله ونعم بالله ومن النساء من ترفع صوتها بنبرات حادة وتوزع نظرات حارقة تدمي الفؤاد. إن تلك المرأة لا تعني لي شيئًا فلماذا الشك؟! لو استوقفت طفلًا أو طفلة وحادثته أو لو أثنيت على أحد الصغار فبالتأكيد ستؤخذ بقايا الطعام من بين يدي أو الكأس الذي شربت فيه ويُعمل فيها اللازم!!!

فمرة امتدحت ابنة صاحبة البيت وكيف أنها قد وفقت بين بيتها وأبنائها وبين وظيفتها وعندما جاءت الخادمة لتحمل صينية القهوة أشارت لها صاحبة البيت بعزل هذا النوى وذلك الفنجان بحركات سرية فهمتها بسرعة، فلقد صرت بالخبرة أميز بين تلك الحركات.

لقد رضيت بقضاء الله وقدره، وبذلت كل سبب ولا أزال، إنني أحب الأطفال وهذا أمر فطري في كل امرأة واذكر الله عند رؤيتهم فلماذا تحرمونني تقبيلهم وشمهم ومداعبتهم، لماذا تخافون مني وتخبئون أبناءكم في جحورهم.

لطفًا: أغلقوا سيرة هذا الموضوع في كل مجلس فعندي الآلاف من القصص ومثلها من الأعشاب وربما ضعفها من الأطباء فقلن خيرًا أو اصمتن(*).

والحمد لله وحده

«أختكم العاقر»

(*) مجلة «الدعوة السعودية».

دخلت النت داعية فخرجت عاشقة

تحكي س.م قصتها مع غرفة المحادثة فقالت: أنا فتاة جامعية عمري ٣٠ عامًا، كنت أدخل المنتديات الشرعية بهدف الدعوة إلى الله، وكانت لديّ الرغبة أن أشارك في حوارات كنت أعتقد أنها تناقش قضايا مهمة وحساسة، تهمني في المقام الأول، وتهم الدعوة، مثل الفضائيات واستغلالها في الدعوة، ومشروعية الزواج عبر الإنترنت، وكان من بين المشاركين شاب متفتح ذكي، شعرت بأنه أكثر ودًا نحوي من الآخرين، ومع أن المواضيع عامة إلا أن مشاركته كان لدي إحساس أنها موجهة لي وحدي! ولا أدري كيف سحرتني كلماته؟ فتظل عيناي تتخطف أسطره النابضة بالإبداع والبيان الساحر بينما يتفجر في داخلي سيل عارم من الزهو والإعجاب، يحطم قلبي الجليدي في دعة وسلام، ومع دفء كلماته ورهافة مشاعره وحنانه أسبح في أحلام وردية وخيالات محلقة في سماء الوجود، ذات مرة ذكر لرواد الساحة أنه متخصص في الشؤون النفسية، ساعتها شعرت أنني محتاجة إليه بشدة، وبغريزة الأنثى، أريد أن يعالجني وحدي، فسوّلت لي نفسي أن أفكر في الانفراد به وإلى الأبد.

وبدون أن أشعر طلبت منه بشيء من الحياء أن أضيفه على قائمة الحوار المباشر معي، وهكذا استدرجته إلى عالمي الخاص. وأنا في قمة الاضطراب كالضفدعة أرتعش، وحبات العرق تنهال على وجهي بغزارة ماء الحياء، وهو لأول مرة ينسكب.. ولعلها الأخيرة، بدأت أعد نفسي بدهاء صاحبات يوسف؛ فما أن أشكو له من علة إلا أفكر في أخرى.

وهو كالعادة لا يضن عليّ بكلمات الثناء والحب والحنان والتشجيع وبث روح الأمل والسعادة، إنه وإن لم يكن طبيبًا نفسيًا إلا أنه موهوب ذكي لمّاح يعرف ما تريده

الأنثى، الدقائق أصبحت تمتد لساعات، في كل مرة كلماته كانت بمثابة البلسم الذي يشفي الجراح، فأشعر بمنتهى الراحة وأنا أجد من يشاركني همومي وآلامي ويمنحني الأمل والتفاؤل، دائمًا يحدثني بحنان وشفقة ويتوجع ويتأوه لمعاناتي، ما أعطاني شعور أمان من خلاله أبوح له بإعجابي الذي لا يوصف، ولا أجد حرجًا في مغازلته وممازحته بغلاف من التمنع والدلال الذي يتفجر في الأنثى وهي تستعرض فتنتها وموهبتها، انقطعت خدمة الإنترنت ليومين لأسباب فنية، فجن جنوني.. وثارت ثائرتي.. أظلمت الدنيا في عيني..وعندما عادت الخدمة عادت لي الفرحة.. أسرعت إليه وقد وصلت علاقتي معه ما وصلت إليه.. حاولت أن أتجلّد وأن أعطيه انطباعًا زائفًا أن علاقتنا هذه يجب أن تقف في حدود معينة، وأنا في نفسي أحاول أن أختبر مدى تعلّقه بي.. قال لي: لا أنا ولا أنت يستطيع أن ينكر احتياج كل منا إلى الآخر، وبدأ يسألني أسئلة حارة أشعرتني بوده وإخلاص نيته.

ودون أن أدري طلبت رقم هاتفه حتى إذا تعثرت الخدمة لا سمح الله أجد طريقًا للتواصل معه.. كيف لا وهو طبيبي الذي يشفي لوعتي وهيامي!! وما هي إلا ساعة والسماعة المحرمة بين يدي أكاد ألثم مفاتيح اللوحة الجامدة.. لقد تلاشى من داخلي كل وازع! وتهشم كل التزام كنت أدّعيه وأدعو إليه. بدأت نفسي الأمّارة بالسوء تزيّن لي أفعالي وتدفعني إلى الضلال بحجة أنني أسعى لزواج من أحب بسنة الله ورسوله.

وتوالت الاتصالات عبر الهاتف.. أما آخر اتصال معه فقد امتد لساعات قلت له: هل يمكن لعلاقتنا هذه أن تتوج بزواج؟ فأنت أكثر إنسان أنا أحس معه بالأمان؟! ضحك وقال لي بتهكم: أنا لا أشعر بالأمان.. ولا أخفيك أنني سأتزوج من فتاة أعرفها قبلك. أما أنت فصديقة، وتصلحين أن تكوني عشيقة، عندها جن جنوني وشعرت أنه يحتقرني فقلت له: أنت سافل.. قال: ربما، ولكن العين لا تعلو على الحاجب.. شعرت

أنه يذلني أكثر قلت له: أنا أشرف منك ومن... قال لي: أنتِ آخر من يتكلم عن الشرف!! لحظتها وقعت منهارة مغشي عليّ.. وقعت نفسيًا عليها.

وجدت نفسي في المستشفى، وعندما أفقت، أفقت على حقيقة مُرَّة، فقد دخلت الإنترنت داعية، وتركته وأنا لا أصلح إلا عشيقة!!ماذا جرى؟! لقد اتبعت فقه إبليس اللعين الذي باسم الدعوة أدخلني غرف الضلال، فأهملت تلاوة القرآن وأضعت الصلاة، وأهملت دروسي، وتدنى تحصيلي، وكم كنت واهمة ومخدوعة بالسعادة التي أنالها من حب النت.. إن غرفة المحادثة فتنة.. احذرن منها أخواتي فلا خير يأتي منها ما لم تضعي لنفسك حواجز إيمانية تمنعك من الانجراف وراء الملذات(*).

❀❀❀

(*) موقع «طرق الإيمان».

عندنا صيدة!... فإذا هي زوجته

هذه قصة حقيقية واقعية حدّث بها أحد الدعاة فقال: سُجلت بأحد أقسام الشرطة.اثنان من الشباب... اجتمعا على معصية الله... يؤزهم الشيطان أزّا... ويدفعهم دفعا، والمصيبة أنهما متزوجان.أحدهمت قام يومًا من الأيام بمغامرة! فبعد أن اتصلت عليه امرأة... ونشأت بينهما علاقة محرمة، واعدها في يوم من الأيام أنه سوف يسهر معها.وليخلو له الجو في بيته... اعتذر لزوجته أن لديه عملًا... ولا بُد أن تذهب لأهلها، وذهبت المسكينة، وذهب الذئب الغادر إلى حيث واعد تلك المرأة.

قالت له: نريد أن نجلس قليلًا في الحديقة ثم نذهب إلى البيت... فوافق. وبعد أن ذهبا إلى البيت... طلبت منه أن يُحضر العشاء والشراب أولًا. .خرج من بيته إلى أحد المطاعم وأخذ معه شيئًا من الشراب... وبينما هو في طريقه... استوقفته سيارة المرور الشرطة قالوا له: أنت قطعت الإشارة... أوقف سيارتك واركب معنا، أوقف سيارته وركب معهم...وبعد أن وصل إلى مركز الشرطة... طلب الاتصال بصديق عزيز...أخذ زاوية من المبنى واتصل بأعز أصدقائه: تكفى... البيت فيه صيده... والعشاء في السيارة والسيارة في المكان الفلاني... خذ العشاء ورح لبيتي وأكمل المشوار... وإذا انتهيت من الفريسة رجعها بيتها... أخاف إن زوجتي تجي للبيت ثم تصير فضيحة.

قال صديقه: أبشر... مادام فيه صيده! انطلق الصديق الوفي إلى بيت صديقه العزيز! فماذا رأى؟؟؟وأي لطمة لُطمها؟؟؟ وأي صفعة تلقاها؟؟؟ يا لهول الفاجعة! أتدرون من وجد؟؟؟ وجد زوجته هو، ومع من كانت تخلو وتسمر؟مع أعز أصدقائه! صُعِق... صرخ... أنت طالق بالثلاث... بالأربع... بالألف!.

وماذا يُفيدك هذا؟؟	يداك أوكتا وفوك نفخ
عفوا تعف نساءكم في المحْرَمِ	وتجنبوا مالا يليق بمسلم
إن الزنا دين إذا أقرضته	كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
من يزنِ في قوم بألفي درهم	في أهله يُزنى بربع الدرهم
من يزنِ يُزنَ به ولو بجداره	إن كنت يا هذا لبيبًا فافهم
ياهاتكا حُرَمَ الرجال وتابعا	طرق الفساد عشت غيرَ مكرم
لو كنت حُرًا من سلالة ماجدٍ	ما كنت هتّاكًا لحرمة مسلمِ

يُروى أن رجلًا أوصى ابنه عندما أراد الابن السفر، فقال له: احفظ أختك، فاستغرب الابن من هذه الوصية وهو يريد أن يسافر ويبتعد عن أخته، فمضت الأيام، فرأى الأب ساقي الماء يقبل ابنته، فلما عاد الابن قال له أبوه: ألم أقل لك احفظ أختك. قال: وما ذاك؟ قال له: دقّة بدقّة، ولو زدت لزاد السقا. إنها لعظات وعِبر وذكرى لكل مدّكر (*).

❀❀❀

(*) موقع «طرق الإيمان».

تكلفة الخادمة أرحم...!!

لقد مضى على اجتماعنا ذاك سنتان أو تزيد أنجبت فيها ابني الرابع ولم أر شيئًا من بنود الاتفاقية نُفذ إلا البند الأول المتعلق بعدم إحضار خادمة مهما كانت الظروف نظرًا للضرر الكبير المترتب على ذلك سواء على الأبناء أو علينا نحن.

أما بقية البنود فأسمع جعجعة ولا أرى طحنًا.

فالبند الثاني كان: أن نتعاون على أمور الحياة فلا تكلفني ما لا أطيق ولا تكثر عليَّ اللوم (وما يجيء مني فهو بركة).

والبند الثالث: أن توفر مع الزمن كل ما من شأنه إعانتي على العمل وتوفير الوقت والجهد من أجهزة كهربائية (مطبخية) للتقطيع والفرم والعجن و... وأجهزة كهربائية للتنظيف والغسيل وهكذا..

والبند الرابع: أن تكون عونًا لي في ذلك كله وأن تتحمل بعض الأعباء إن كنت في حالة شغل أو عجز لمرض ونحوه (لا عليك إن احتجت لثوب ورأيتك مشغولة ثقي أنني سأقوم بكيِّه... وكذلك الأبناء إذا أردنا الخروج فإني سأقوم بمساعدة الأولاد في اللباس، وهذا كله لأن أبنائي كلهم مازالوا في سن الحضانة اليوم أرى أن هذا الكلام صار هباءً منثورًا.

فالخادمة لم تدخل البيت ولن تدخله (حسب الاتفاقية) ولكن أين بقية البنود؟! (ما يجيء منك فهو بركة) كيف وأنت كل يوم تطلب تنويعًا على مائدة الطعام.

(مللت طبق الأرز بالخضار – والدجاج المسبك) ألا تجيدين غير هذا؟! أين المقبلات والحلويات والمشويات و...

الملابس متراكمة بعضها فوق بعض فأين التعاون إذا كنت ترفض أن تأخذها للمغسلة حتى تخفف العبء عني؟

أقوم بعملية الغسيل من الصباح حتى المساء ثم أطلب منك أن تكوي ملابسك فقط عند الكاوي فترفض مستقبحًا الأمر مرة ومهونة مرة أخرى.

واليوم ضيوف على العشاء، والغسالة تعمل منذ الصباح. وعملية تنظيف كاملة للبيت فماذا يضيرك لو أحضرت لنا طعام الغداء من المطعم المجاور فالوقت عبر بسرعة وأنا لا أعرف بماذا أبدأ؟!

وعندما تلزمني الحمى الفراش وهذا يحدث كثيرًا من جراء الأنفلونزا أكون عاجزة عن العمل في البيت أو الاهتمام بشئون الأبناء فأبحث عنك!!

أطفالك يريدون من يساعدهم في اللباس ومن يحضر لهم الغداء. وبعض الأشياء المبعثرة على الأرض في حاجة إلى من يرتبها، فمن لي في هذه الظروف الصعبة؟!

حسنًا: أنا لا أقول أريد الخادمة لأني أعرف ماذا ستجر وراءها من المتاعب، ولا أقول لك ساعدني في عمل البيت لأني أعلم أن هذا طعن لك في رجولتك ولكني أقول بكل صراحة: أريدك أن توفر كل ما من شأنه إعانتي وتوفير الجهد والوقت لي. فمثلًا الغسالة الأوتوماتيكية تقوم بعمل مضاعف في وقت قليل فهي تغسل وتجفف وتكوي الملابس أيضًا.

وغسل الأواني لن يكون متعبًا أبدًا إذا اشتريت (غسالة الصحون) خصوصًا وأنك ترغب في التنويع الدائم فباستطاعتي مثلًا بضغطة زر أن أحصل على أواني نظيفة جافة فقط أرتبها في أماكنها.

أما مسألة الكنس وتنظيف (الموكيت) والأرضيات الصلبة فإذا اقتنيت المكنسة الكهربائية المخصصة، لذلك فستكون عملية التنظيف ممتعة إذ إنها ستنظف البقع وتجففها وتغسل الأرضيات وتكنسها في أسرع وقت وأقل جهد.

فماذا بقي؟! إنها عملية الطهي فهناك الكثير والكثير من الأجهزة الكهربائية المخصصة للتقطيع والعجن بالخلط والفرم، وكذلك قدور الضغط والغلايات والأفران الكهربائية وأجهزة التحميص والشواء والتحمير والقلي التي ستوفر علي وستجعل الطهي متعة وراحة.

إن توفير مثل هذه الأجهزة وغيرها حتى وإن كان مكلفًا بعض الشيء فإن فيه منافع عدة منها ألا تدخل الخادمة بيتي فتجد الراحة والحرية التي تنشدها فيه. ومنها ألا يرهقني العمل كثيرًا فتجد زوجًا في الليل وصديقًا في النهار. ومنها أن أخصص وقتًا كبيرًا لتعليم أبنائي وتربيتهم.. ووقتًا لتثقيف نفسي وتوسيع مداركها. وغير هذا كثير، فما رأيك الآن(*)؟!

«زوجتك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة السعودية».

مراهقة في بيت الزوجية

لقد قضيت عمري كله كأي أم في تعليم بناتي أمور حياتهن، كان أكثر ما يهمني أن تدير بناتي بيوتهن بنجاح، أن تعرف كل واحدة منهن ماذا تفعل؟ ومتى؟ وكيف؟.

غرست في نفوسهن فضل طاعة الزوج وفن خدمته، وكنت في كل مرة أزف فيها واحدة منهن إلى زوجها بيد أتسلم باليد الأخرى شهادة شكر وتقدير منه على حسن التربية والتعليم. وقبل حوالي سنة زففت صغرى بناتي إلى زوجها الذي كان يؤكد لنا أن سمعة بناتي الطيبة هي الدافع الرئيسي وراء اختياره لنا، وصعقت إذ لم أتسلم شهادة تقدير ككل مرة بل خطابات شكوى وعتاب.

(هالة) فتاة هادئة، ذلك النوع من الهدوء الذي لا تستطيع تخمين كنهه، قليلة الكلام لا تفصح عن آرائها ولا تتجاوب مع آراء الآخرين، على محياها ابتسامة باردة لا تنبئ عن شيء، أعني أنني قبل زواجها لم أكن لأستشف شخصيتها. ولكنني على كل حال لم أتوقع أن تكون على تلك الحال أو نصفها.

زوجها يشكو إهمالها وعدم مبالاتها بكل شيء، هي تتقن كثيرًا من أصناف الأطعمة والأشربة ولكنها لا ترغب في أن يتذوق زوجها شيئًا من صنع يديها، وحتى عندما يطلب طبقًا معينًا يفضله ترد بكل برود أن المطعم الفلاني يتفننون في صنعه كثيرًا.

وكل الأيام عندها سواء هكذا يقول زوجها حيث إن أمه حينما رغبت في المجيء عندهم لعدة أيام لم تبد (هالة) شيئًا من الترحيب الحار والفرحة الغامرة بقدومها كما أنها لم تغير نظام حياتها تبعًا لذلك فنومها واستيقاظها وأكلها في مواعيدها كما هي، ولم تفكر مرة واحدة بسؤال خالتها عما تشتهي على الغداء أو العشاء، ولم يخطر ببالها كما يقول عمل قهوة في الصباح أو التبكير بموعد الإفطار من أجل أم زوجها.

أنا أعلم أن ابنتي ليست سيئة الطوية تجاه خالتها، ولكنها سلبية جامدة لا تعير اهتمامًا كبيرًا بالأشياء من حولها ولا تقدر حجم المسئولية وهذا اتضح لي حين عاتبتها وواجهتها بما قاله زوجها.

ولقد تعبت في تجهيز هالة كثيرًا حيث زوجها وأهله من طبقة غنية فحفيت قدماي أبحث معها عن أفخم الملابس والأحذية والحلي، وفي النهاية لا ترتضي عن تلك البلوزة والتنورة بديلًا، في كل مرة يأتون إلينا أو يذهبون لأهله أو يزورون أحد الأقارب أو الأصدقاء أو حتى زارونا تفتح دولابها – كما يقول – وتأخذ تلك التنورة السوداء وأحد القمصان القطنية وذلك القرط الكبير ثم تجمع شعرها غير مبالية بحجم المناسبة ولا أهميتها ولا حتى إن كان دعوة خاصة بها أم لا؟

لماذا يا ابنتي (فشلتيني) أين تلك الفساتين الفخمة والتاييرات ذات التكلفة الباهظة وتلك الجلابيات التي حيكت بأغلى الأسعار، أين حليك الذهبية والألماسية؟ أنت الآن لست صغيرة، ولم تعودي تلك الفتاة المراهقة التي لا يلتفت إلى هيئتها أحد، مهرك كان كبيرًا والناس يريدون أن يروا أثره عليك، هل تريدين أن يقولوا: أكلت أمها مهرها أو ادخرته لها؟ الأواني في بيتك من أجود الأصناف ومع ذلك لم تقدمي الأكل فيها لأحد، لماذا؟ وماذا تفعل في بيتك؟ هل هي زيادة ديكور؟ أم اقتنيتها للعرض والفرجة؟

ما بالك لا تعيشين واقعك؟ تسقطين أمام أي مشكلة مهما كانت صغيرة؟ لا تحسنين التعامل مع الحياة؟ وتجهلين فن التكيف فيها؟ كل مرة يشكو زوجك من وضع جديد وحال سيئ، (متى تنعدلين يا هالة، فشلتني) أرهقتني أمام زوجك وأهله، ماذا أقول: هل أقول إنني لم أحسن تربيتها كأخواتها؟ أو أقول إنها هكذا وستظل (عوجاء). معاذ الله أن تكوني هكذا.

غاليتي: عديني أن تلتفتي إلى نفسك وأن تصلحي من حالك وأن تعرفي حجم التغيير الذي حدث في حياتك ومقدار المسئولية الملقاة عليك ومن كنت؟ ومن أصبحت؟ وفي أي مجتمع تعيشين؟ والله يوفقك ويقر عيني بك(*).

«أمك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة السعودية».

والنهاية ورقة الطلاق

ضحيت بدراستي الجامعية من أجل الزواج وخوفًا من أن يفوتني القطار وتزوجت ولكنني رأيت وجهًا مختلفًا للرجل الذي تزوجته بعد ذلك والسبب أنني وللأسف قبلت العيش معه في بيت عائلته حيث تهجمت علي أمه وأخواته اللواتي لم يتزوجن وجعلنني لعبتهن.. يفتعلن المشكلات والخلافات ويوشون لزوجي بأنني أكثر من الخروج والحديث في الهاتف بمجرد خروجه من المنزل، احتملت الكثير وصبرت على ذلك حتى لا أخرج أجر أذيال الخيبة والندم، ولكن فاض بي الكيل مع تغير زوجي تجاهي وظل يسمع لصوت أمه وأخواته، وبدأ يهملني ويوجه إلي الشتائم والسباب ووصل الأمر إلى حد الضرب، وأيضا تحملت ولكني بمرور الوقت اكتشفت انه يخونني واعترف لي بذلك صراحة.. لم أتمالك نفسي.. هربت إلى منزل والدي وطلبت الطلاق لكنه رفض بدافع من أمه وأخواته، تنازلت له عن كل حقوقي حتى وافق على طلاقي.. فقد كان هدفي الخروج من الجحيم بأية وسيلة وخرجت بالفعل ولكني خرجت بورقة طلاق وأنا لم أتجاوز العشرين من عمري.

لقد كان زوجي – سامحه الله – مليئًا بالعيوب الواقعية التي تتنافى مع رومانسيتي التي اعتدتها منذ طفولتي... فهو مثلًا كان يملأ فمه مما يجعل فتاتًا يتطاير على وجهي وهو يحدثني... وكانت له عادة سخيفة أنه لا يستخدم منديلًا لتنظيف أنفه بل يبتلعها مباشرة في صورة لا ترضي أحدًا... ولم يكن – سامحه الله – خفيض الصوت بل كان جهوريًا إلى حد إنني كنت أسمع من جارتنا تفاصيل ما كان يدور في شقتنا في اليوم التالي دون جهد منها.. وكان لا يحترم خصوصيتي في أشيائي أو غرفتي أو دولابي، يطلب مني أن أعد طعامًا من اللحم والأرز في منتصف الليل لأنه نام في النهار ويجافيه النوم الآن دون الالتفات إلى أنني لا أنام النهار وأقوم مبكرة لعملي ومدارس أبنائي. هل أقول أكثر؟.

المهم أن عيوبه كانت كثيرة.. لكنني اكتشفت الآن وبعد طلاقي منه أن عيبي الأوحد كان أكثر وزنًا من كل عيوبه مجتمعه.. فعيبي الأوحد أنني لم أكن أمرر أمرًا من كل هذا دون أن أوبخه عليه وألفت نظره إليه وأستهزئ به وبسلوكه الذي لا يعجبني منه بل وأظهر اشمئزازي من تصرفه المعيب أمام أي أحد.. وكان هو يصمت صمتًا مريبًا أمام هذا النقد اللاذع بشكل جعل الشك يداخلني كل لحظة في أنه يبيت لي النية على أمر.. إلى أن صحوت ذات يوم على وريقة بجوار سريري يقول لي فيها: سوف أرسل لك نفقة الأبناء مطلع كل شهر.. وسوف تصلك ورقة طلاقك في غضون أيام.

لقد تزوجت بعدما تركني وتركته.. وفرض موضوع طلاقي نفسه على أحاديثي مع الصديقات والقريبات ولم يكن كذلك من قبل.. اكتشفت أن ما كنت أعانيه هو ما تعانيه جميعهن في بيوتهن ومع أزواجهن وبفروق قليلة واستثناءات أقل...شكوى يصرخ بها الرجل المطلق.. هي أن امرأته تحاول بعد طلاقها بقولها أو بصمتها أن تطعن في كفاءته كرجل.. فهو إما بخيل وحريص على الفلوس والحياة معه ضنك وحرمان.. وإما شكاك وغيور والحياة معه هي الجحيم بعينه.. وإما بصاص وعينه زايغة أو فارغة لا فرق والحياة معه عذاب ولوعة.. وإما مريض بمرض عضال ولا يصلح للقيام بأعباء الزواج والحياة معه ألم وشقاء.. وإما.. وإما.. وإما.. كل ذلك حتى تبرئ ساحتها وتلقي بأسباب فشل زواجها فوق رأسه.. حتى لايقول قائل بأنها لم تنجح في زيجتها لعيوب جوهرية فيها.. فيسد بذلك باب الزواج في وجهها وهذا ما لا تنتظره ولا تتمناه(*)..!

(*) منتديات «جامعة قطر».

حب الزوجة يطغى على البر!!

في هذا الزمن انقلبت المفاهيم.. وانتكست الفطر وصار بر الوالدين والبحث عن راحتهما في آخر قائمة الاهتمامات في جدول كثير من الأبناء، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصار الارتباط بالأهل عند البعض حسب الحاجة. رحم الله زماننا، وزمان آبائنا، كنت متزوجة وعند أهل زوجي أسكن ومع ذلك لم أكن أرى زوجي إلا لمامًا مع أنه لم يكن في دوام رسمي، بل كان في مهنة أهله وخدمتهم يحصد ويزرع ويسقي النخل وغيرها من الأعمال المتعلقة بالزراعة والفلاحة، وكنت أنا مع خالتي (أم زوجي) في البيت نطبخ ونكنس ونجهز اللقمة حتى يحضر الرجال وكنا في عيشة راضية وهنية.

والآن صار الرجل يبحث عن زوجته وأبنائه.. يجلس معهم ويحادثهم ويتفكه في بيته وعندما يكون مع أهله أعني أمه وأخواته يجلس بشكل متكلف متصنع ويحسب لكلامه ألف حساب ويجعل علاقته معهم علاقة مصلحة وحاجة.

ربما ليس الكل ولكن البعض وابني هداه الله من هذا البعض، فعندما نكون جلوسًا ومعنا زوجته عند زيارتنا طبعًا تجده مرتاح البال هاشًا باشًا يوزع الطرائف والتعليقات ويملح الجلسة (وقعدته ما تمل) ولكن حين يزورنا بمفرده يعد الكلمات عدًا (وتقول جالس على جمر) كلمتين سد غرض ثم يمشي، لماذا لا يفكر في أمه؟ ألا يشعر أنني وقد كبرت ازددت حاجة لهم؟ هل هو فقط يأتي ليطل على والده المريض؟ إذن لا قدر الله لو صار تحت الثرى فلن نراه؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

إن ابني مع الأيام يثبت لي صحة نظرتي؟ فالعطلة التي سافرت فيها زوجته وأبناؤه مع أهلهم إلى المصايف مدة شهر كامل حولت بيتنا مطعمًا (أم صالح بتسافر مع أهلها وأنا يمكن أكون معكم على الفطور والغداء).

الساعة العاشرة صباحًا، جرس الباب يرن، (صباح الخير يا أمي)، (صباح الخير خالد) (أين الفطور بسرعة عندي شغل) (البنات يجهزونه.. يا بنات بسرعة الفطور أخوكم مستعجل) تمد سفرة الطعام وعليها الفول وما تشتهي النفس مما يتيسر في البيت.. لقمة أو لقمتين (صراحة أنا ما أحب البيض المسلوق) (لا تقربين الطحينية.. هي من ألد أعدائي) وهكذا ثم بعد ذلك (كوب شاي وإلى الباب) ولا نراه إلا مع الغداء حوالي الساعة الثانية والنصف أو الثالثة، وعلى نفس المنوال إما أن يعيب الأكل أو يتذوقه بأصابعه أو يفرض علينا طبقًا معينًا ربما نحن لا نحبه.

وعندها يضيق صدري إن قلت للبنات شيئًا تضايقن وتأففن.. وإن صمت قال: لا تهتمون بوجودي (لعل الله يجيب عيالي يحطون عشاء أشتهيه).

الناس يفرحون بالعطلة وكما تقول (هند) أنها تحب السفرة المنوعة على الغداء خصوصًا في العطلة حيث لا هم دراسة ولا مذاكرة، ولكن خالد يحرمها من هذا الفرح. فمن غير المعقول أن يكون الغداء كل يوم صنف واحد (أرز وسلطة خضراء) والثلاجة ملأى بالخضر من كل لون.

والذي يغيظني دائمًا أنني سمعت من زوجته أكثر من مرة أنها حين تكون مشغولة أو (مالها نفس في الطبخ) أو لأي ظرف طارئ تقلي بيض أو بطاطس لأنها على حد قولها لا تريد مجهودًا، وهو دائمًا يعيب هذين الصنفين بمناسبة أو بدون فما الفرق؟

وخالد باهت الشخصية، غامض الملامح لا تستطيع معرفة ما بداخله ولا تحدد سببًا لبعض تصرفاته فمرة طلبت إحدى أخواته فستانًا من زوجته لترتديه في إحدى المناسبات وحين رأتها بعد ذلك قالت زوجة خالد لابنتي: روحت لك الفستان مع خالد لماذا رجعتيه) قالت: (لم يكن مقاسي) مع أنها لم تر خالدًا ولا الفستان وقد ظنت

في زوجته الظنون، والصورة تكون مقلوبة إذ لو طلبت زوجته من عندنا شيئًا – وهذا شيء يفرحني – تجده في لمح البصر يهب لتلبية طلبها دون تردد.

(بنت الناس) طيبة ولا أظلمها وهي حين ترى معاملة زوجها لها ولأبنائها وحين يشعرها بحلاوة لسانه أنه يخدم أهله ويسعى في راحتهم فإنها تصدقه ثم من غير المعقول أن تكون (بنت الناس) أحرص منك على سعادة أهلك وإرضائهم.

خالد.. اليوم فقط وبعد هذه السنين كلها أكتشفك.. يؤسفني أن أقول أنك تظهر لنا في وجود زوجتك بوجه وحين لا تكون موجودة يظهر منك الوجه الحقيقي، هل هذا نفاق؟ أم خوف منها؟ أم تلميع للصورة؟ أيًا كان فإنه شيء لا يرضي الله البتة وحتى أنت لن ترضاه من أبنائك ولكن كما تدين تُدان. وسلمت من كل مكروه(*).

«أمك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة السعودية».

لا نفرط في الجوهرة!!

مرّ شهران قبل أن تعود إلينا «نورة» وهي تحمل في يدها ورقة «طلاقها» وحسرتها في آن، لم تستطع العيش مع رجل لا يصلي ولا يعرف القبلة. شهران كانت كافية لأن تقرر مصيرها لكنها لم تكن كافية لوالدها ليراجع حساباته ويرتب أوراقه، بينما نصفها فقط أعني شهرًا واحدًا كان بإذن الله سيختصر الطريق، فقط، لو أنك سألت عن الخاطب وتحققت من دينه وصلاحه!!

متى تدرك يا أبا صالح أن بناتنا أمانة عندنا؟ سهرنا على راحتهن وتعبنا في تربيتهن وأخذنا نرقب تفتحهن كالزهرات الفواحة العطرة فإذا حان قطافهن ضننا بهنَّ إلا على من يأخذهن بحقهن، وهو الذي نرضى دينه وخلقه ليصونهن ويحفظهن كريمات عزيزات؟!!

إن حسن اختيار أزواج لبناتنا هو ختام أعمال مؤتمرنا التربوي الكبير لننام بعدها قريري العين مرتاحي البال بعد توفيق الله لهن، وحتى إن لم يكتب لهن التوفيق فإن حسبنا أننا قمنا بالمهمة على أكمل وجه يرضي الله عنا ويبرئ ذممنا ويعفينا من الوقوف بين يدي الله للمساءلة، أليس الله سائلًا كل عبد عما استرعاه؟!!

إن أي شخص شاب أو كهل، لا فرق يطرق الباب خاطبًا تستقبله وتعطيه كلمة موافقة مبدئية.. لماذا؟! لأن شكله ابن حلال أو لأنه جاء من طرف فلان قريبك الذي تثق به أو الذي ربما ترى أنه لن يرسل لك إلا من يثق به، أو لأن مهنته لا يلتحق بركابها في الغالب إلا الناس الجيدون!!

كم مرة سترنا الله بستره ولم نقع على رؤوسنا، تذكر عبد الرحمن ذلك الذي أردت أن تعقد له على فاطمة ابنتك ولولا لطف الله بنا لكانت فاطمة تعيش في عذاب نفسي

كبير الشاب طيب ولا يظهر عليه ما يسوء هذا ما بدا لك، ولكن إحدى المعلمات معها في المدرسة تعرفه جيدًا ولقد أسرت لها بحقيقته عبد الرحمن عديم الشخصية، تحركه أمٌّ متسلطة وهي تعامل زوجات أبنائها كالجواري، كل واحد من إخوانه إما طلق أو أوشك زواجه على الإنهيار!!

وهل تذكر إبراهيم الذي بدا مسالمًا وديعًا، ولم تفكر بالسؤال عنه لأنه جاءك بتوصية من صديقك!! الحمد لله الذي أراحنا منه قبل أن نندم فهو بخيل وعاق لوالدته وسُمْعته سيئة في عمله!! هذا ما استطاع أخي معرفته عنه وما خفي كان أعظم!!

أبو صالح أرجوك فكر دائمًا وبتروٍّ، وقرر بعد بحث وقص، لا تستعجل النصيب فكل بنت سترى ما كُتب لها، لا يغرك قرابة قريب، ولا حلاوة لسان، ولا جاذبية مظهر، فتش عن الدين والخلق والخوف من الله.. ألا يؤلمك قلبك؟ ألا يعذبك ضميرك؟ حين ترى صفية ابنتنا البكر زوجها قريبك، والده ابن عمتك، لما تقدم لخطبتها لم تسأل عنه استقبحت ذلك وعددته عيبًا؛ هذا العيب حول حياتها إلى ألم وحسرة، زوجها سكير، لا يستغني عن الشراب، له أصحاب يدعون إلى الضلال، هاهي تكابد الحياة معه لأجل أبنائها الذين شبوا عن الطوق ولا تدري ما تفعل معه، سكتت في البداية وابتلعت الخزي حفاظًا على سمعة والده وجدته!! ولما استحكم الأمر وطفح الكيل كان لها منه ستة من الأبناء!! كلما رأيتها شعرت أنك ظلمتها وأنا أشاركك الإثم لسكوتي حينها..

أتمنى أن تغير طبعك وأن تحاول التدقيق في الخاطب وحسن اختيار الزوج اسأل عن صلاته، عن دينه، اسأل عنه في عمله، ابحث عن أصدقائه، مع الأسف كل ما يهمك هو أن تعرف أصله وفصله وما هي بلدته مسقط رأسه، من هم أخواله، ومع أهمية هذه المعلومات إلا أنها لا توازي سابقتها ولا تضارعها مكانة!!

في كل مرة يتقدم إلينا أحد أضطر للاستعانة بأخي فهو جزاه الله خيرًا لا يقصر في السؤال، ويتحرى الدقة ويجمع المعلومات من الجيران وإمام الحي وأصحاب العمل

وأقارب الرجل أيضًا، كم أبدو محرجة في كل مرة أضطر لسؤال أخي، فزوجي مازال على قيد الحياة لكنه مفرط ومتساهل ومع أنه لدغ أكثر من مرة إلا أنه لم يرتدع.

ويبدو أنه لن يتوب من اللدغ، فنورة حين طلقت أصبحت حقًا مشاعًا لكل أحد أن يتقدم لخطبتها مع أنها ما زالت صغيرة وجميلة فهذا رجل قد طلق للمرة الثالثة، وذاك آخر رأسه كالثغامة وثالث اسودت شفتاه من التدخين!! ورابع ليس له عمل يعيش منه!! ولولا رحمة الله سبحانه ثم وقوفي في وجهه كالجبل الرأسي لا أتزحزح عن قراري بعدم الموافقة على هؤلاء ومن على شاكلتهم لكان أن شمت بنا الشامتون وهزأ الساخرون!!

فالحمد لله أن وهب لي شخصية قوية وحضورًا فاعلًا في حياتنا الأسرية مما مكنني من صد كثير من الركلات الموجعة عن بناتي وتفادي الكثير من الأخطاء الفادحة التي كادت أن تعصف بحياتهن، فمثل هذا الأب لا يستحق البنات اللاتي هن نعمة من الله سبحانه حين نحسن تربيتهن ونحسن اختيار بعولتهن ليكنَّ لنا سترًا من النار يوم القيامة!

أبو صالح على رغم محبتك لبناتك ورفقك بهن وفرحك بمولد كل واحدة منهن إلا أنك حين يتهيأن للزواج تبدو كحاطب ليل، مرة تصيب وعشر تخيب.

أستميحك العذر إن قلت لك إنني لم أعد أثق في كل من يأتي إلينا من طريقك من صديق أو رفيق عمل أو حتى جار حتى أسأل عنه بنفسي وأوصي من يسأل عنه من أهل الخير والصلاح لما أرى من تساهلك في هذا الجانب، فالبنت جوهرة ثمينة حفظناها كل تلك السنين لنقدمها على طبق من ذهب لمن يستحقها فقط ويعرف كيف يحفظها ويكرمها، إنها غالية وعزيزة، فأدرك ذلك، وفقك الله(*).

«زوجتك»

(*) مجلة «الدعوة».

اللوحة المثالية

ترددت طويلًا قبل أن اكتب إليك رسالتي هذه فأنا سيدة أشغل مركزًا قياديًا مرموقًا وقد نشأت في أسرة ريفية طيبة وكان أبي رجلًا طيبًا مخلصًا لأسرته وبينهم كل الإخلاص وأمي أمًا رائعة مثالية وأخي وأختي لا نعرف كلنا سوى الحب والترابط والتعاطف، وحين وصلت إلى السنة النهائية في كليتي تقدم إلي شاب جامعي للزواج مني ورحب به والدي وشاركته والدتي الترحيب رحمهما الله وكان أول رجل يدخل حياتي فتملكني حبه وشعرت بأن الله - سبحانه وتعالي - قد أنعم علي به وتزوجنا وعشت معه أسعد أيام الحياة ومضت بنا الأيام على خير ما يرام ورزقنا بولدين وبنت ورفرف الحب والوئام على حياتنا حتى استحققنا أن نكون بالفعل الأسرة المثالية فعلاقتي بزوجي لا توصف من حيث الحب والإخلاص والصراحة المتبادلة بيننا والمشاركة الكاملة بيني وبينه في كل شيء.. فلا مال لي ولا مال له وإنما كل ما يملك زوجي هو لنا معًا وكل ما أملكه كذلك حتى حسابي بالبنك معه توكيل مني بالتصرف فيه كما أن معي توكيلًا منه بالتصرف فيما يملك، والأبناء رائعون ومتفوقون.. ومهذبون وقد تقدموا في الدراسة حتى بلغوا كلياتهم المرموقة وتخرجوا فيها وسعدنا بمناسبات نجاحهم وتخرجهم وتعاونت مع زوجي في افتتاح مكاتب ومشروعات مهنية صغيرة لهم.

واكتملت اللوحة العائلية المثالية بارتباط أبنائنا الثلاثة بزوجات وأزواج من أسر عريقة طيبة. ولم تشهد حياتنا في هذا الأمر أي خروج على اللوحة الرائعة فلم يرتبط ابن لي بمن هي دونه اجتماعيًا وعائليًا ونشبت بسبب ذلك مشكلة عائلية في أسرتنا ولا ارتبطت ابنة لي بزوج لا يستحقها وحاربتنا لكي تتزوجه رغمًا عنا كما نقرأ أحيانًا في بريد الجمعة وإنما مضى كل شيء في سلام ووئام.. وانتقل الأبناء إلى أعشاشهم الصغيرة

وعرفنا متعًا عائلية جديدة حين نزورهم في بيوتهم أو يزورونا في بيتنا.. ولم يلبث الأحفاد أن جاءوا ليزيدوا حياتنا ضياء وبهجة حتى خشيت على حياتي من الحسد ودعوت الله دائمًا أن يحفظ علينا سعادتنا وسلامنا العائلي.. ثم اقترب زوجي من سن المعاش وبدت عليه علائم انشغال الخاطر والتفكير وأحسست بما يدور في نفسه وهو يقترب من سن التقاعد من العمل وأنا مازلت أعمل وأخرج إلى عملي كل يوم وفكرت في الأمر طويلًا ثم عرضت عليه أن أنهي حياتي العملية وأخرج للمعاش المبكر لكي أشاركه أوقات فراغه خاصة وأنه لم يكن يفصل بيني وبين سن الستين سوى خمس سنوات، وقلت له أن حياتنا قد اكتملت وإننا أدينا رسالتنا مع أبنائنا على خير وجه.. فلماذا لا أستقيل وأتفرغ له ونستمتع معًا بحياتنا وأوقات الفراغ الطويلة.. وباستقبال أحفادنا الصغار لحين عودة أمهاتهم الشابات من العمل، ولكنه فضل لي الاستمرار في عملي حتى أصل إلى سن المعاش الطبيعية واستجبت لرغبته وبلغ زوجي سن المعاش واحتفلنا بتحرره من أسر الوظيفة وسافرنا معًا للأراضي الحجازية لأداء العمرة وشكرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كثيرًا أن خرج زوجي إلى المعاش وهو بكامل صحته.

وبدا زوجي بعد المعاش يجلس وحيدًا في البيت في الصباح وأخرج أنا للعمل وعرف التدخين بانتظام لأول مرة في حياته وعاتبته في ذلك خوفًا على صحته فأجابني بأنها مجرد تسلية لشغل الفراغ وتعمدت أن أكثر من الخروج معه عقب عودتي من العمل بالرغم من إرهاقي وتعبي وأكثرنا من زيارة أبنائنا في بيوتهم لكيلا يشعر بالملل والضيق بالفراغ.

ومنذ بضعة شهور نسيت في البيت عقب خروجي منه تقريرًا كتبته عن شأن من شئون العمل وأكتشفت ذلك عند وصولي لمكتبي فاستدعيت عاملة من العاملات معي وأرسلتها للبيت لإحضاره وبعد ذلك لاحظت أكثر من مرة اختفاء أشياء صغيرة من حقيبة يدي بعد وصولي للعمل كمفاتيح المكتب وغيرها، فكنت أرسل هذه العاملة

لإحضاره من البيت لأنها تعرف طريقه، وذات يوم شعرت بإجهاد شديد وأنا في العمل وتعرضت لنوبة من الإغماء، وانزعج زملائي وتعاونوا على إعادتي للبيت بسيارة أحدهم ونزلت أمام سكني وصعدت إليه وفتحت الباب ودخلت حجرتي، فإذا بي أجد زوجي الرجل المثالي المحترم جد الأحفاد الصغار يجلس في الغرفة وتلك العاملة التي سبق أن أرسلتها إلى البيت عدة مرات تتحرك في المكان علي راحتها وهي ترتدي الملابس المنزلية التي تخصني.. ولست أدري ماذا فعلت أو قلت أو قال زوجي.. لكني أذكر فقط أنني سمعت تلك الحقيرة تقول لي في ثبات أن البيه زوجها هي الأخرى كما هو زوجي حضرتي أنا الست المديرة.! واستردت وعيي بعد ذلك فوجدتني ممددة في فراشي وحولي ابني ومعه طبيب من معارفه ولم أنطق بشيء ولم أقل شيئًا.. إلا أنني فقط انفعلت وهجت مرة أخرى حين دخل علي زوجي وأغمي علي مرة ثانية، وسأضرب صفحًا عن ذكر التفاصيل التي تلت هذه الفاجعة.. وسأقول لك أنني حصلت على إجازة من عملي لمدة شهر قضيت بعضه في بيت ابنتي التي حاولت معي طويلًا أن تعرف سر ما حدث لي فلم أبح لها به.

ورجعت إلى بيتي بعد هذه الفترة وطلبت من زوجي تفسيرًا لما فعل فلم يجد ما يقوله لي سوى أنه أمر الله وأنه لم ولن يكون في يوم من الأيام عاصيًا لربه فطلبت منه أن يطلقها ويعطيها كل ما نملك مقابل طي هذه الصفحة قبل أن يعرف بها الأبناء وتهتز لديهم صورة الأب المثالي والجد الحنون لأطفالهم فرفض هذا الحل. أما الهانم التي ارتبط بها زوجي وعرضني من أجلها لهذه المحنة في هذه المرحلة من عمري فقد علمت من العمل أنها استقالت واختفت منه، إنني أخشى على أولادي وأحفادي حين يعلمون بهذه القصة الشائنة عن أبيهم وجدهم ولا أدري كيف أواجه ما تبقى لي من حياتي بعدها.. وزوجي مازال مصرًا على موقفه بالرغم من كل ما حدث فماذا أفعل يا سيدي حرصًا على سمعة أولادي وأوضاعهم العائلية في أسر أصهارهم.. وهل يكون

انتحاري هو الحل الملائم لمثل هذه الكارثة علمًا بأن خوفي من ربي هو وحده الذي يمنعني الآن من الإقدام عليه؟.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: الانتحار ليس حلًا لأية مشكلة من مشاكل الحياة وإنما هو هروب منها وعجز عن مواجهتها والصمود أمامها.. فضلًا عن أنه عمل يائس يخرج بصاحبه من حظيرة الإيمان بربه إلى اليأس من روح الله ومن كل شيء في الحياة، والواضح يا سيدتي من سياق قصتك الغريبة هذه أن زوجك قد تأثر تأثرًا سلبيًا بعدة عوامل تحالفت كلها ضده وأدت به في النهاية للوقوع في هذه المحنة العائلية الاجتماعية أولها هو أنه لم يتفاعل علي الوجه الصحيح مع مشكلة الفراغ التي واجهها بعد الإحالة للمعاش ولم يحسن التعامل مع أزمة انتهاء الدور والاعتقاد الخاطئ لدى البعض بتراجع أهميتهم في الحياة وعلى المستوى العائلي لمجرد انتهاء مرحلة العمل في حياتهم وبدء مرحلة تذوق الحياة على مهل واكتشاف جمال الأشياء والعلاقات الإنسانية التي لم يكن إيقاع الحياة اللاهث يسمح له من قبل بتوجيه قدر كافٍ لاكتشافها والتمتع بها.

وأما ثاني هذه العوامل فهو أنه فيما أتصور كان يشكو بعض النقص في الإشباع الحسي والعاطفي في علاقته بك بالرغم من مثالية الصورة العائلية واكتمال معالمها ذلك أن اكتمال الصورة وبالرغم من أنه في حد ذاته قيمة كبرى ونعمة جليلة من نعم الحياة إلا أنه لا يعني الزوج أو الزوجة عما يستشعره أحدهما من نقص الإشباع العاطفي والحسي في علاقته بشريك الحياة حتى ولو عوضه عن الكثير والكثير مما ينقصه في حياته، وأما ثالث العوامل وأخطرها.. فهو توافر عامل الإغراء الذي أتاح لزوجك أن يحيل ما يراوده من أفكار وتمنيات ساعد وقت الفراغ الطويل على استسلامه لها والمغالاة في تقدير أهميتها إلى واقع عملي، فبعض الأشخاص قد تراودهم مثل هذه الأحلام الوردية لإشباع ما يشعرون بنقصه في حياتهم فلا يردهم عن ذلك الإخلاص لشريك الحياة أو مراعاة الاعتبارات العائلية والاجتماعية التي تكبل حركتهم وقد

يردهم عن ذلك أنهم حين استسلموا لضعفهم ولم يصادفوا في التوقيت الملائم مَن يمكن أن يحيلوا معه خواطرهم وأمنياتهم الحبيسة إلى واقع عملي ذلك أنه كما يحتاج الأمر إلى شخصين لكي تقع مشاجرة على حد تعبير المثل الإنجليزي القديم فأنه يحتاج إلى شخصين أيضًا لكي تبدأ علاقة ارتباط أو زواج. ومن سوء الحظ أن زوجك قد صادف وهو في مرحلة الضعف المعنوي والتأثر بعرض انتهاء الدور وازدياد الرغبة الحسية لديه بتأثير الفراغ من هموم العمل والحياة هذه القرصانة المستعدة للتلبية والانخراط في مغامرة مشروعة تكفل لها الارتقاء الاجتماعي وتلبية الرغبات الحسية والمعنوية والمادية لديها في نفس الوقت ولو لم تضعها الأقدار في طريقه في هذا التوقيت الشائك بالذات لربما كان قد تجاوز مرحلة الضعف النفسي هذه بسلام وتداءم مع المتغيرات الجديدة في حياته وتوصل إلى الصيغة الملائمة معك لإشباع ما يشكوه من نقص.

إنها حالة أخرى من حالات ذهول القلب والعقل والتغاضي عن كل الاعتبارات العائلية والاجتماعية أمام النزوة الطارئة أو إلحاح الغريزة أو العاطفة العابرة وهذا الذهول قد يمتحن به أي إنسان في أي مرحلة من العمر فيضعف أمامه ويعرض النفس والأسرة لمتاعب عائلية ما كان أغناه عنها ويصحو له من الأزواج والزوجات من رحم ربك واعتصم بدينه وخلقه وإحساسه السليم بمسئولياته العائلية والإنسانية.ولقد كان الأحرى بزوجك أن يتسم بكل ذلك ويسعى لحل مشكلة علاقته بك إذا كان يشكو نقصًا فيها بدلًا من أن يعرض نفسه وزوجته وأبناءه لهذه المحنة الطارئة التي تخدش جلال صورته بكل تأكيد في أعين أبنائه وزوجاتهم وأزواجهم وأصهاره.

ولقد روي كاتب قصة سراب الحب الأمريكية موقفًا مشابهًا لرجل ناجح وقور وزوج مخلص لزوجته وسعيد معها كان دائمًا ضد نزوات الأزواج ويستعيذ بربه منها ويردد دائمًا من العهد القديم الآية الكريمة التي تقول: وسيبلونك الله بالجنون والعمى وذهول القلب مستعيذًا بربه من مثل هذا الابتلاء إلى أن جاء يوم ووضعت الأقدار في

طريقه امرأة لعوبًا ساحرة انهارت حصونه أمامها من الوهلة الأولى ووقع في هواها.. ونسي التزامه عبادته وإخلاصه لزوجته وانساق وراء أهواء نفسه معها واعترف لشريكة حياته بأنه مريض ولا يملك دفعًا لهذا المرض المفاجئ وصبرت عليه زوجته عسى أن يبل من مرضه ويسترد اتزانه غير أنه لم يغفر لنفسه بعد أن أفاق من نزوته ما فعل بزوجته ونفسه وصورته المثالية في أذهان المحيطين به ولم يجد تكفيرًا لذلك سوى الانتحار من فوق سطح العمارة التي يقيم بها.

ولسنا نطالب زوجك بمثل هذا التكفير المرفوض عما فعل بنفسه وزوجته وصورته الجليلة كزوج وأب وجداً وإنما نطالبه فقط بأن يسترد نفسه من حالة ذهول القلب والعقل هذه التي استولت عليه فجأة وهو في سن الهدوء والاحترام وبأن يتوصل معك إلى صيغة ملائمة لحل كل مشاكله وتلبية كل احتياجاته العاطفية والنفسية حتى ولو تطلب الأمر تفرغك الكامل له واستقالتك من عملك وبأن يسرع باسترداد صورته المثالية في أعين الأبناء والأحفاد والأصهار وشريكة الحياة قبل أن يفلت الزمام من يديه وتأتيه القرصانة الأخرى بوليد صغير يزيد الأمور تعقيدًا أو يتسرب خبر المحنة إلى الأبناء والأصهار ويصبح عسيرًا إصلاح ما أفسده الاندفاع والتهور والاستسلام لأهواء النفس بغير خسائر معنوية واجتماعية جسيمة. فهل يستجيب لنداء العقل قبل فوات الأوان. وهل تستمرين أنت في إبقاء الأمر داخل الدائرة الضيقة بينكما إلى أن يسترد زوجك نفسه ويتحرر من أسر هذه القرصانة بأقل الخسائر الممكنة كما تحرر من قبل من أسر الوظيفة وأعبائها؟(*).

(*) «جريدة الأهرام» للأستاذ/ عبد الوهاب مطاوع.

أريد زيارة أمي!!

عاشت والدتي بعد وفاة والدي - يرحمه الله - ظروفًا صعبة فكانت تنفق علينا من كسب حلال من كد يدها وعرق جبينها: تخلط البهارات، تصنع أردية للصلاة وغطاء للوجه وبارك الله في جهدها.

وكنت ابنتها المدللة، كان اهتمامها بي يفوق اهتمامها بأخواتي جميعًا لأنني كنت في بطنها حين مات أبي، فخرجت للدنيا يتيمة فأحاطتني بحبها وحنانها.

والآن وبعد أن بلغ الكبر بأمي مبلغه وجاء الوقت لأخفض لها جناح الذل من الرحمة أجد من يعيقني عن برها والإحسان إليها بحجج واهية.

إن زوجي بقدر حرصه على بر والديه والإحسان إليهما بالزيارة الدائمة وتفقد أحوالهما وتقديم الهدايا لهما ومساعدتهما والتحبب إليهما بقدر استغرابه وتضايقه من طلبي لزيارة أمي!!

إنه يرى أن في إخواني البركة وأنهم لم يتركوا لي دورًا أقوم به والمهم أن تجد أمي حاجتها!!

لا، يا زوجي الحبيب، أمي ستجد حاجتها عند الخادمة التي تنظف البيت وتجهز لها الطعام وتكرم ضيوفها لكن ليست هذه هي حاجتها فقط، إنها تحتاج ليد حانية تحقنها بالأنسولين، وهي تسمي الله وتدعو لها بالشفاء تحتاج لكلمة طيبة تخفف عنها الألم، لعاطفة صادقة، ولقلب كبير يسعان همومها.

أنت لا تسمح لي بزيارة أمي إلا مرة واحدة في الأسبوع بحجة أن الأولاد عندهم واجبات، وهل قصرت معهم يومًا! إنني حين أود زيارة أمي أرتب أموري مسبقًا وإن

تداركني الوقت أخذت دروسهم معي ليذاكروا في بيت والدتي، فنجلس معها جلسة عائلية نرتشف الشاي ونتذاكر أيام الماضي المرة التي مضت كأن لم تكن.. تنطلق أمي في حديث عذب عني وعن إخوتي، حديث كالماء المنسكب من الجرة حين تقلب على فمها تندلق معه كل الرواسب العالقة بالقعر فتنشرح نفسها لذلك ويصفو مزاجها.

أنت لا تسمح لي بتكرار زيارة أمي في مرضها، على رغم أنك لا تدع زيارة والديك يومًا واحدًا، لا يعيقك عنهما زحمة المرور أو بُعد المسافة أو ضيق الوقت وهنيئًا لك ولكن ليتك تقدر الوضع.. أمي تسقط طريحة الفراش، الجسم مهدود، والأنفاس متقطعة، تحتاجني كما تحتاج كل واحدة من أخواتي، فستكثر زيارتي لها كل يومين وترفض أن تأخذني لها مع أنك - بإذن الله - ستشاركني الأجر وسيصيبك بركة دعائها، وماذا أفعل عندها؟! هل تراني «أثرثر وأتفكه» إنني أقيس لها الضغط ونسبة السكر وأتأكد من سيرها على الحمية والعلاج الذي وصفه الطبيب لها، إن أخواتي مثلي لهن أبناء يدرسون ولكن لديهم أزواج يتفهمون الوضع جيدًا.

فأمي في مرضها ليست بحاجة لابنتها التي معها نصف دستة من الأبناء بقدر حاجتها لابنتها المتفرغة لرعايتها التي تزورها لتساعدها وتقف إلى جانبها، أنت لا تحاول مساعدتي بأخذ أبنائك معك أو تركهم في البيت مع الخادمة، بل تجبرني على أخذهم معي لأفك اشتباكهم وأهدئ أصواتهم حتى لا يزعجوا والدتي!! مع أنني أتركهم في البيت حين أذهب إلى السوق!!

أتساءل دائمًا: لماذا تشدد علي في مثل هذه الأمور؟ لماذا تتضايق حين أطلب منك زيارة والدتي؟ مع أنها امرأة طيبة، عفيفة اللسان، كريمة المعشر، ثم إنها كبيرة ومريضة ووحيدة تحتاج إلى أنيس ومعين.

أتمنى مرة أن أشاركها الغداء أو العشاء كما يفعل أخواتي، كم مضى من عام وهي تأكل وحدها، ترى هل لهذه اللقيمات نكهة أو مستساغًا؟! أتمنى هذا وأنت ترفض!!

كم أود أني بجانبها حين يأتيها ضيوف، أصب القهوة وأعد الشاي وأقدم أطباق المعجنات التي كانت تفخر بصنعي لها عند جاراتها!! ولكنك تتضايق!!

ليس في كل مرة أطلب منك زيارة أمي لرؤيتها والجلوس معها، بل أحيانًا يتطلب الأمر أن أذهب وحدي كأن أرتب غرفتها وأعيد تنظيم الأثاث فيها ففي البرد يكون موقع السرير وهو محاذٍ للشباك يؤذيها.

وفي مرة فقدت ورقة مهمة تخص تقاعد والدي رَحِمَهُ اللَّهُ ولما أعلمتني وعدتها أن آتي لأبحث عنها ولكني لم أفعل لأنك لم ترغب في ذلك وجاءت أختي ونالت الثواب والدعاء من أمي.

كم أحب والدتي، وأتمنى أن أبرها وأحسن إليها، أرتب غرفتها أرسل إليها طعامًا تحبه، أنظم المخزن، أنظف البيت كما تهوى، فوالدتي قبل أن تهدها السنون كانت مضرب المثل في النظافة والنظام مما يجعلها حريصة على جمال البيت وإبراز رونقه، ولا يبرد حرها في ذلك خادمة آسيوية!!

أتمنى... وأحب.. ويتقطع قلبي حسرة لذلك.. ولكني لا أجد من يقدر هذا الأمر قدره أو يعينني على ذلك، بل أجد من يرفض ويتضايق ويملّ.. فمتى يفتح الله على قلبك ويلينه لأمي.. عسى أن يكون ذلك قريبًا(*).

«زوجتك»

(*) مجلة «الدعوة».

امرأة في اللحظات الأخيرة

هذه قصة أشبه بالخيال منها بالحقيقة.. ولو حدثني بها أحد لأكثرت عليه وأكثرت الاستيثاق منه. فقد كنت أجلس في مكتبي بعد أن فرغت من صلاة العشاء الآخرة في إحدى الليالي الطويلة من شتاء (أوريجن) الطويل في شمال غربي القارة الأمريكية بالولايات المتحدة في شهر شوال من عام ١٤١٩هـ.

وفي مدينة (يوجين) حيث كنت طالبًا في جامعة (أوريجن) أمسيت مستغرقًا للدرس، وبينا أنا كذلك والهدوء مخيم والصمت مطبق لا يقطعه إلا صوت ابنتي الصغيرة وهي تلعب.. وإلا صوت زخات المطر المتقطع وإن كنت أستأنس بذلك كله ويبعث فِيَّ روحًا من النشاط جديدة.. وبينما أنا كذلك إذا برنين الهاتف يتسلل بين تلك اللحظات الساكنة؛ وها هو أخ لي في الله جزائري اسمه (شكيب). وبعد التحية والسلام.. أخبرني بحادثة جد غريبة.. وسعيدة في آن واحد!! فقد كان لزوجته الأمريكية المسلمة (كريمة) خالة على ديانة الصليب والتثليث، وقد أُخذت الخالة تلك إلى مستشفى «سيكرت هارت» الذي يبعد عن منزلي مسير ثلاث دقائق وبعد تشخيص حالتها لم يستطع الأطباء إخفاء الحقيقة.. فالمرأة ميئوس من حياتها.. وإنها مفارقة لا محالة.

والأمر ساعة أو ساعتان أو أكثر أو أقل والعلم عند الله وحده. ثم ذكر لي ما جرى له ولزوجته وأنا في ذهول تام أستمع إلى نبرات صوته يتهدج وكأني أحس بنبضات قلبه وحشرجته تعتري صوته بين الحين والآخر، وقد قال لي بالحرف الواحد: تحدثت مع زوجتي في حال خالتها، وتشاورنا في إجراء محاولة أخيرة ندعوها فيها إلى الإسلام ولو بقي في عمرها ساعة ما دامت لم تغرغر الروح. قال صاحبي: فاستعنت بالله، وصليت ركعتين، ودعوت الله - عَزَّ وَجَلَّ - لها بالهداية وأنا في السجود، وأن يشرح صدرها لدين الهدى والحق.. وذلك لعلمي أن العبد أقرب ما يكون إلى ربه وهو

ساجد. ثم اتجهت كريمة إليها في المستشفى وعرضت عليها الإسلام وأخبرتها أن الإسلام يجبُّ ما قبله، وأن الله يغفر لها ما قد سلف من عمرها إن هي قالت: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله) خالصةً من قلبها. غير أن تلك المرأة المريضة قد فقدت القدرة على الكلام، فطلبت زوجة صاحبي بفطانة وحسن تصرف من خالتها المريضة أن تنطق بالشهادتين في نفسها إذ كانت عاجزة عن النطق بلسانها، وأنها إن فعلت ترفع يدها إشارة لذلك. وبعد أن أوضحت لها معناها بالإنجليزية قالت لها: قولي بقلبك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

ثم كانت لحظات حرجة على كريمة؛ فكم تتمنى لخالتها النجاة من نار وقودها الناس والحجارة، ومع دقات قلب متسارعة مرت ثوان بطيئة متثاقلة لا يشبه تثاقلها إلا حركة يد المرأة المريضة التي بدأت ترفع يدها بعد أن سمعت تلقين الشهادة أكثر مما كانت تستطيع أن ترفعها من قبل، وتبسمت معلنة رضاها واختيارها وقبولها دين الإسلام، فما كان من (كريمة) وهي في قمة الفرحة والسرور إلا أن بدأت تبشرها وتقرأ عليها سورة يس.. بينما ظلت ترتسم على محيا تلك المرأة ابتسامة سرور بسماع القرآن إعلانًا منها برضاها التام بما تسمع من آيات الذكر الحكيم.

وإذا بالممرضة الأمريكية التي كانت تتابع ما يحدث دون أن يشعر بها أحد تتقدم لتعرض تبرعها بأن تكون شاهدًا رسميًا على إسلام خالة كريمة إن احتيج إلى ذلك.. أنطقها الله الذي أنطق كل شيء. «لا إله إلا الله!!» وها هو صديقي شكيب يسألني عما يجب علينا تجاه هذه المرأة التي ما زال لها عرق ينبض ونفس يجري. أجبته: إنها أخت لنا في الإسلام لما ظهر لنا من شأنها، ونَكِلُ سريرتها إلى الله عز وجل. قلت له ذلك وأنا في غاية الذهول، وقلبي يخفق فرحًا لإسلام هذه المرأة وهي في مراحل متقدمة من المرض وقد أيس الأطباء من شفائها. وذكَّرت أخي قول الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا

رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجمَع خلقه في بطن أمه في أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد؛ فو الله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ثم يسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ثم يسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها».

ثم وضعت سماعة الهاتف.. أطرقت لحظة، وضعت كفي على خدي؛ فما شعرت بنفسي إلا وأنا أجهش بالبكاء تأثرًا واستبشارًا، وكذلك كان حال من حولي عندما رويت لهم القصة تلك الليلة وكانت لحظات معطرات بالخشوع والدموع حامدين فيها لله تعالى، مهللين له ومسبحين لما تفضل به على هذه المرأة من الهداية.. أما صاحبي فقد أخبرني عندما التقيت به في المسجد فيما بعد أنه كلما ارتسمت في خياله صورة هذا الموقف، غلب عليه شعور غريب من الدهشة وأحس في جسده بقَشعرِيرة، ثم لا يجد في نفسه إلا مزيدًا من الرغبة في الصلاة وطول السجود والمكث في المسجد.

مهلًا فالحكاية لم تنته بعد.. ففي الليلة نفسها التي أسلمت فيها هذه المرأة وما مضت ساعات على محادثتي معه وعندما هاتفت صاحبي لأخبره بأن عليها أن تصلي المغرب والعشاء على ما يتيسر لها ولو إيماءً؛ وإذا به يخبرني بأن الأجل المحتوم قد سبق الجميع إليها، أسلمت روحها لباريها مسلمة هكذا نحسبها والله حسيبها راضية بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا ورسولًا؛ وما صلت لله صلاة واحدة. فاللهم بحق الإسلام وأُخُوَّته نسألك أن ترحمها وأن تتقبلها بأحسن القبول. اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة.. يا أرحم الراحمين(*).

(*) قصة للأستاذ/ عبد الرزاق المبارك – مستشار بهيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

في بطن الحوت

الإشارة حمراء.. والطريق مليء بالسيارات...لم يتبق على الموعد سوى بضع دقائق.. تبًا لهذه الإشارة إنها طويلة.. يا ليتني كنت في الصف الأول.. لكنت قطعتها.. الثواني تمر بطيئة كأنها دقائق بل ساعات.. أنظر إلى الساعة حينًا وإلى الإشارة حينًا آخر.. أضاءت الإشارة اللون الأخضر.. ضغطت على منبه السيارة أزعجت الجميع.. تحركت السيارات.. تجاوزت الأول..كدت اصطدم بالثاني.. قيادتي للسيارة أفزعت من حولي.. حاولت أن أسرع.. لكنني لم أستطع.. مضى الوقت.. وضاع الموعد.. ولم أجد الأصدقاء.. لقد ذهبوا.. إلى أين أذهب؟.. احترت في الإجابة.. أطلقت زفرة من صدري.. ياليتني كنت أعرف مكانهم.. السيارة تمضي بهدوء.. انطلقت أفكر.. أيقظني منبه سيارة أخرى.. نظرت إلى صاحب السيارة بغضب.. وأشرت إليه بيدي.. تمهل الدنيا لن تطير.. ونسيت حالي قبل دقائق.. قررت أن أقضي السهرة في البيت.. إنها فكرة جيدة.. فابنتي الوحيدة مريضة.. والأفضل أن أكون قريبًا منها.. أوقفت السيارة أمام محل الفيديو.. نزلت إلى المحل.. اخترت عدة أفلام.. وانطلقت إلى المنزل.. فتحت الباب.. ناديت على زوجتي.. أحضري الشاي والمكسرات.. دخلت إلى الغرفة.. يالها من زوجة معقدة.

الآن ستقول لي: اتق الله يا أحمد.. لقد تعودت على هذه الكلمات حتى تبلدت أحاسيسي نحوها.. لكنها زوجة مطيعة.. طيبة.. تشقى من أجل سعادتي.. دخلت ومعها الشاي والمكسرات.. ابتسمت في وجهي.. قالت: لابد أنك سئمت السهر مع أصدقائك وتريد أن تجلس في البيت.. قلت: نعم.. تعالي واجلسي.. فرِحت وهمت أن تجلس.. وقمت أنا إلى جهاز الفيديو والتلفاز.. فانطلقت الموسيقى الصاخبة.. أرخت

المسكينة رأسها وقالت: اتق الله يا أحمد.. وخرجت تجر أذيال الحسرة والهزيمة.. فهي لا تسمع الموسيقى.. ارتفعت الأصوات في الغرفة.. موسيقى.. صراخ.. ضحكات.. وانطلقت أشرب الشاي.. وأتناول المكسرات.. وعيناي قد تسمرتا في شاشة التلفاز.. انتهى الشريط الأول.. والشريط الثاني.. الساعة تشير إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.. فجأة.. مقبض الباب يتحرك ببطء.. صرخت: ماذا تريدين؟.. لم أسمع جوابًا.. انفتح الباب.. دخلت ابنتي المريضة.. فاجأني الموقف.. سكت برهة ولم أتكلم.. اقتربت مني.. نظرت إليَّ بهدووووء.. ثم قالت: اتق الله يا بابا.. اتق الله يا بابا.. ثم انصرفت وأغلقت الباب.. نادينها.. سارة.. سارة.. لم تجب.. انطلقت خلفها.. لا أكاد أصدق..هل هذه ابنتي؟.. فتحت باب الغرفة.. وجدتها سبقتني إلى فراشها.. ونامت في حضن أُمها.. إنها هي.. عدت إلى غرفة الجلوس..

أغلقت جهاز الفيديو.. صوت ابنتي يملأ الغرفة.. اتق الله يا بابا.. اتق الله يا بابا.. قشعريرة سرت في جسدي.. تصبب العرق من رأسي.. لا أدري ماذا أصابني.. ما عدت أسمع إلا صوتها.. ولا أرى إلا صورتها.. كلماتها اخترقت كل الحواجز الجاثمة على صدري منذ زمن بعيد.. ترك صلاة.. معاصٍ.. دخان.. أفلام خليعة.. أيقظتني من الغفلة.. تسارعت نبضات قلبي.. وألقيت بجسدي على الأرض.. حاولت أن أنام.. لكنني لم أستطع.. مضى الوقت سريعًا.. صور من الماضي استعرضتها أمامي.. ومع كل صورة أسمع صوت ابنتي يتردد.. اتق الله.. اتق الله.. وهنا.. ارتفع صوت الأذان.. اهتزت جوانحي.. ارتعدت فرائصي.. رعشة سرت في أطرافي.. جعل يردد: الصلاة خيرٌ من النوم.. قلت: صدقت.. الصلاة خير من النوم.. أووووه.. لقد كنت نائمًا كل هذه السنين.. توضأت وخرجت إلى المسجد.. مشيت في الطريق وكأني لا أعرفه.. كأن نسائم الفجر تعاتبني أين أنت؟.. وطيور السماء تقول: مرحبًا بالنائم الذي استيقظ أخيرًا.. دخلت المسجد.. صليت ركعتين.. وجلست اقرأ القرآن.. تلعثمت في

القراءة.. منذ زمن لم أقرأ القرآن.. شعرت أن القرآن يسألني: لم هجرتني منذ سنوات.. ألستُ كلام ربك.. أخذت أردد في سورة الزمر: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا).. عجبًا.. جميعًا.. ما أرحم الله بنا.. تمنيت أن أستمر في القراءة.. لكن المؤذن.. أقام الصلاة.. تجمدت في مكاني لحظة ثم تقدمت مع الناس.. وقفت في الصف.. وكأنني غريب.. انتهت الصلاة..جلست في المسجد حتى أشرقت الشمس.. عدت إلى البيت.. فتحت باب الغرفة.. ألقيت نظرة على زوجتي وسارة.. كانتا نائمتين.. تركتهما وخرجت إلى العمل.. ليس من عادتي الذهاب مبكرًا إلى العمل.

تفاجأ الزملاء بوجودي.. انطلقت عبارات التهنئة ممزوجة بالسخرية.. لم أبال بما يقولون.. تسمرت عيناي على الباب.. أنتظر قدوم إبراهيم.. زميلي في المكتب.. والذي طالما نصحني.. إنه شخص طيب الأخلاق.. حسن المعاملة.. حضر إبراهيم.. فقمت من مكاني أستقبله.. لم يصدق عينيه.. سألني: أنت أحمد؟!!.. قلت: نعم.. جذبت يده.. وقلت: أريد أن أحدثك.. قال: لا بأس.. نتحدث في المكتب.. قلت: لا.. نذهب إلى الاستراحة.. صمت إبراهيم.. وراح يصغي لكلماتي.. حدثته بحديث البارحة.. امتلأت عيناه بالدموع.. وابتسم ابتسامة عريضة.. قال لي: ذاك نور أضاء قلبك فلا تطفئه بظلمة المعاصي.. كان يومًا حافلًا بالنشاط والجدية.. رغم أني لم أنم منذ البارحة.. ابتسامة تعلو وجهي.. تفانٍ في العمل.. المراجعون يتجهون نحوي.. يطلبون مني مساعدتهم.. بعضهم قال لي: ما هذا النشاط؟!..أجبته: إنها صلاة الفجر في المسجد.. مسكين إبراهيم.. كان يتحمل العبء الأكبر من العمل.

أما أنا فقد كنت أنام.. لم يشتك ولم يتذمر.. ياله من إنسان طيب.. نعم إنه الإيمان عندما تخالط حلاوته القلوب.. مضى الوقت ولم أشعر بالتعب والإرهاق.. قال لي إبراهيم: أحمد.. يجب أن تذهب إلى البيت.. فإنك لم تنم منذ البارحة..

وسأقوم بعملك.. نظرت إلى الساعة.. لم يبق على أذان الظهر سوى دقائق.. قررت البقاء.. أذن المؤذن.. فسارعت إلى المسجد.. جلست في الصف الأول.. شعرت بالندم على الأيام التي كنت أهرب فيها من العمل وقت الصلاة.. بعد الصلاة انطلقت إلى البيت.. في الطريق انتابني شعور بالقلق.. يا ترى كيف حال سارة؟.. شعرت بانقباض.. لا أدري لماذا؟! أحسست أن الطريق هذه المرة طويل.. ازداد الخوف.. رفعت رأسي إلى السماء.. دعوت الله أن يعجل بشفاء ابنتي.. وصلت إلى البيت.. فتحت الباب.. ناديت زوجتي.. لم أسمع جوابًا.. دخلت الغرفة مسرعًا.. زوجتي منطوية على نفسها تبكي.. التفتت إليَّ.. صرخت وهي تبكي: لقد ماتت سارة.. لم أتبين ما تقول.. اندفعت نحو سارة.. ضممتها إلى صدري.. حاولت حملها.. سقطت يدها نحو الأرض.. جسمها بارد.. كذلك يداها وقدماها.. نبضها.. أنفاسها.. لم أسمع شيئًا.. نظرت إلى وجهها.. نورٌ يتلألأ.. كأنه كوكب دري.. أيقظتها.. حركتها.. هززتها.. صرخت أمها: سارة.. سارة.. لقد ماتت.. ماتت.. وانخرطت في البكاء.. لم أصدق ما أرى.. كأنه حلم.. انهمرت الدموع من عيني.. أخذت أشهق.. أنظر إلى وجهها الجميل.. وشعرها الناعم.. أقبِّل فمها الصغير.. كأنها تردد الآن: عيب عليك.. عيب عليك.. يا بابا.. تذكرت أن هذه مصيبة.. أخذت أردد.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

اتصلت بإبراهيم.. قلت له: تعال فورًا.. لقد ماتت سارة.. النساء في الداخل مع زوجتي يغسلن ابنتي.. انتهين من تغسيلها.. لففن على جسدها الطاهر خرقة بيضاء.. نادتني زوجتي.. دخلت كي أودع سارة الوداع الأخير.. كدت أسقط على الأرض.. تماسكت.. قبلتها على جبينها.. عاهدتها على الثبات حتى الممات.. نظرت إلى أمها.. فإذا هي زائغة العينين.. شاحبة الوجه.. تنتفض.. قلت لها: لا تحزني.. فقد ذهبت إلى الجنة

بإذن الله.. هناك سنلتقي.. فشمري كي تشفع لنا.. ثم قرأت قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

بكت الأم وبكيت أنا.. صلينا عليها صلاة الجنازة.. ثم سرنا بها إلى المقبرة.. أنظر إلى الجنازة وكأنني أنظر إلى النور الذي أضاء لي حياتي.. وصلنا المقبرة.. المكان موحش.. مخيف.. توجهنا إلى القبر.. وقفت على شفير القبر.. هنا سأضع ابنتي.. أمسك إبراهيم بكتفي وقال: اصبر يا أحمد.. نزلت إلى القبر.. إنها دارك يا أحمد.. ربما اليوم وربما غدًا.. ماذا أعددت لهذه الدار.. ناداني إبراهيم: أحمد خذ البنت.. وضعتها على صدري.. وددت لو أدفنها فيه.. ضممتها.. قبلتها.. ثم وضعتها على شقها الأيمن.. وقلت: بسم الله وعلى ملة رسول الله.. صففت اللبن.. سددت كل المنافذ.. خرجت من القبر.. بدأ الناس يهيلون التراب.. لم أملك دموعي(*)..

❀❀❀

(*) كتاب «في بطن الحوت» للشيخ/ محمد العريفي.

الاتكالية أفقدتني الراحة

لما وطأت أقدامنا أرض الوطن قبل فترة كدت أطير فرحًا بحياة الاستقرار والثبات.. سنسكن بيتنا، سيدرس أبناؤنا مع أبناء بلدهم، سنسمع الأذان، سنفعل كل شيء حرمنا منه في غربتنا، سنزور أقاربنا، ونصل أرحامنا ونصلى مع المسلمين، سنعتمر ونحج.. سألزم عشي فقد آن لي القرار يا لها من حياة طيبة وكريمة.

حططنا الرحال وبدأنا نذوب في مجتمعنا ونصير قطعة منه، وعدت أمارس دوري الطبيعي كأم وزوجة فقط، بعد أن كنا في الغربة شخصين: شخص يدرس ويحضر رسالته وهو زوجي، وشخص آخر يقوم بجميع المهمات الأخرى وهو أنا، ذلك أنني كنت حريصة على عدم تضييع الوقت في غير الدراسة والطلب، لذا تحملت عبء القيام بمهمات زوجي في البيت، ومع الأولاد وفي السوق وفي المستشفى وغيرها.. إذ ما كنت لأقتطع جزءًا ولو يسيرًا من وقته لأطلب منه شيئًا، كنت أقدر على القيام به لنفسي أو بمساعدة من إحدى جاراتي وخصوصًا نحن في بلد تتبعثر فيه الأدوار وتختلط المسئوليات (!!).

كنت أدرس الأولاد وأراجع لهم دروسهم وأسأل عنهم في مدارسهم، كنت أتفقد حاجات البيت، وأحضر الأغراض اللازمة، واتصل بالصيانة حين يحدث خلل ما، أذهب بأبنائي للمكتبة إذا احتاجوها، وأشتري لهم ملابسهم من السوق وآخذهم للمستشفى إذا مرضوا ترافقني في ذلك إحدى جاراتي الطيبات..

شعرت أن علي القيام بدور الأم والأب في وقت واحد، ولقلة الارتباطات واختلاف البيئات استطعت القيام بمهمتي الجديدة بكل جدارة، وصرت ربان السفينة لخمس سنوات هي مدة ابتعاثه..

لما عدت لأرض الوطن وأردت أن أمارس دوري الجبلي كأم وزوجة واجهني زوجي ببرودة الشديد، واتكاله المقيت، لقد استعذب حالنا تلك وبقي الدارس المنكب على كتبه ومراجعه المتخفف من مسئولياته الحقيقية!!

الأمور هنا مختلفة، والأدوار الاجتماعية مقسمة، وما يصلح هناك معاب ومشين هنا (!!) ولكن تفريطي في السابق وحرصي على الخروج من ذلك الكابوس المزعج الغربة بأسرع وقت هما اللذان أضاعت الحقيقة وزرعا هذه الاتكالية!!

فأول مشكلة واجهتني هي المدرسة التي سنختار لدراسة أبنائنا فيها فحرت لكثرة العروض ولما جئت أستشيره رمى عبء الاختيار علي، فعلي أن أتصل وأسأل عن مميزات المدرسة ومناهجها وإدارتها ثم أقرر إن كانت هي الأنسب.. لاحظوا أقرر أنا.. وكأننا ما زلنا في بلد الغربة!!

مسألة كهذه تحتاج لثقل رجل ومسئولية أب ومع هذا يرميها بكل اتكالية علي!!

لقد كنت هناك أرفض أن أزور أهلي وبلدي حتى يتسنى لنا أخذ المزيد من ساعات الدراسة لتقل المدة الزمنية المقررة، ولما عدنا صار يتضايق من زيارة أهلي ويطلب مني أن أبقى في البيت وأقلل من الزيارات لأقاربي وصديقاتي لأنه اعتاد على ذلك وأصبح يحبه!!

عدت إلى الوطن وما زلت الأم والأب في آن واحد حين أحتاج إلى شيء من مستلزمات البيت فعلي أن أدبر أمري إن كان قريبًا ذهبت سيرًا على الأقدام مثلًا إلى محل البقالة المجاور وكذلك محل الخضار وأيضًا إلى الجزار!!!

أما إن كان مما يتطلب سيارة فعلي أن ألح في الطلب وأكرر الحاجة فربما أحصل على بغيتي وهذا قليل وربما لا أحصل على شيء وعلي حينها أن أجد الحل!! حتى لا تتعطل أشغالي وتتراكم الحاجات.

فمثلًا أنا التي آخذ الأولاد للخياط لأفصل لهم ثيابهم وملابسهم الرياضية!! وحين مرض أسامة أخذته للطبيب بنفسي مع ما أواجه من حرج خاصة أنني أستخدم في تنقلاتي ومشاويري سيارة الأجرة الليموزين!!

حقًا من عاشر قومًا أربعين يومًا صار منهم، فكيف بخمس سنوات.

تمزق لحم وجهي قطعة قطعة من كثرة ما أطلب من إخواني قضاء حاجة لي!! أو تسهيل أمر لبيتي أو أولادي!

حين تعطل الفرن اضطررت لطلب سيارة كبيرة لنقله للفني ليصلحه، كم كان موقفًا مخزيًا!! هل يعقل أنني أنا التي اتصلت بشركة النظافة واتفقت معها ووقعت العقد أيضًا لتقوم بمهمة تنظيف البيت ورشه بالمبيدات!! وصرت أحفظ رقم السباك والكهربائي لأطلبهما عند الحاجة!! وحتى المطعم كم مرة اتفقت معهم ليحضروا لنا عشاءً أو غداءً نكرم به ضيوفه (!!) إذ إنه لم يعد يعرف شيئًا غير عمله، ونحن أعمالنا معطلة!!

لم يعد يجدي معه النقاش، صارت حياتنا خصومات ونزاعات كل يوم، متى يدرك دوره، ويعود إلى وظيفته؟!! لقد مللت هذا الازدواج!! أريد أن أرتاح.. أن أخلع ثوب الذكورة هذا.. أن أشعر بأنوثتي وضعفي؟.

لقد كنت أنسى أنني امرأة أنتمي إلى هذا المجتمع المحافظ الذي كانت نساؤه يعتبن على الخرَّاجات الولَّاجات.

تركت العمل وتظاهرت في سبيل العودة إلى طبيعتي التي خلقني الله عليها فصار بيتي خرابًا... الثلاجة خاوية، والحديقة كادت أن تموت لأنني لم أستدع البستاني ليرعاها كالعادة وشعور الأولاد طالت حتى أوشكت أن تغطي رقابهم وانقلبت الأشياء رأسًا على عقب!!

لقد تعبت من ممارسة دوري ودور غيري.. إنني أكاد أفقد شخصيتي لقد تعذبت في بلاد الغربة وجئت لأنشد الراحة والاستقرار.

وأنت وجدت الراحة في بلاد الغربة وعدت لتتمسك بها ناسيًا أن لنا في بلادنا عادات وتقاليد، وقبل ذلك قيم دينية نبيلة تعطي كل ذي حق حقه.

أرجو: أخلع عنك هذا الرداء فلم يعد يناسبك مقاسه واعلم أن هذه الاتكالية المقيتة والتخفف من المسئولية ليست من مستلزمات (الدكتوراه)(*)..

جمع الله بيننا بتوفيقه.

«زوجتك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

بيت فوق صفيح ساخن؟!!

لم يكد يمضي عام واحد على وفاة أخي محمد - يرحمه الله - حتى كانت الأبواب مغلقة والستور مسدلة!! كيف؟!

كان أخي محمد رجلًا حازمًا.. ذا شخصية قوية، رجلًا غريبًا عن هذا الزمن الذي أصبح رجاله أو بعضهم كالورق تحمله الريح معها حيث سارت، كان فيه نوع من الشدة الممزوجة بالحكمة وربما أن وضعه الأسرى كزوج لامرأتين يحتم عليه ذلك، فقد حكم أسرته الكبيرة كأحسن ما يكون الحكم، فالأولاد مع بعضهم، والبنات مع بعضهن، مع أن كل زوجة مستقلة في بيت خاص بها ولكن لا يفصل هذين البيتين سوى باب في الجهة الخلفية من البيت، ليس له من الباب إلا اسمه فهو فتحة بطول حائط السور عرضها متر ونصف تقريبًا.

كان أبناء أم صالح وأم عبد الله زوجتي أخي دائمًا مع بعضهم حتى إن الأقارب لا يفرقون بينهم، فهم إما في بيت أم عبد الله يتناولون طعام الغداء مع أبيهم أو في بيت أم صالح يحتسون الشاي، والصغار دائمًا في مرح ومرج يدخلون ويخرجون وينتقلون بين المنزلين بلا حساب ولا عتاب.

كانت كلمة أخي لها وزنها، ورضاه هو مسعى الجميع، وكانت تقطيبة حاجبيه كفيلة بتحويل أحلى ساعات اليوم إلى نكد وغم.

إن نهر أحد الصغار في غير بيت أمه يعني شيئًا مؤسفًا، لذا لم يكن أحد يجرؤ على فعل شيء فيه إغضاب لأخي محمد وحقًا لقد كان رجلًا والرجال قليل. قد يقول البعض إني معجبة بأخي، وحق لي ذلك فلقد تمتع أبناؤه في حياته بجو أسري نقي خال

من الميكروبات التي تسببها عادة خلافات الضرائر، وهذا يدل على حكمته وحنكته وشخصيته القيادية القوية.

مات أخي - يرحمه الله - ولم يمض عام على وفاته حتى أغلقت الأبواب وأسدلت الستور!!!. نسي أبناؤه وصيته بأن يعيشوا كما هو موجود بينهم، وبدأت بعض الرواسب القديمة تطفو على السطح لتعكره، وتحيل صفوه إلى كدر.. قالت، وكانت تقصد.. ولم تكن نيتها سليمة وشعر أبناء أم عبد الله أن أبناء أم صالح وهي الأولى وأبناؤها كبار.. أن إخوانهم يودون ممارسة دور الوصي عليهم وأن صالح يتقمص شخصية والده.

ولا شك أن هذه الخلافات والاختلافات وجدت من يغذيها ويزيد نارها اشتعالًا حتى احترقت الطبخة واسود القدر ولم يعد بالإمكان تدارك شيء!

من يصدق أنني حين أذهب إلى زيارتهما أقسم وقت الزيارة بين الاثنتين فإن كان الغداء عند أم صالح صارت قهوة بعد المغرب عند أم عبد الله وبالأمس القريب كنا نجتمع في ظل أخي كأحسن أسرة. أغلقت الأبواب فلم يعد أحدهم يزور الآخر إلا أن تكون هناك مناسبة اجتماعية كبيرة فإن الزائر منهم يطرق باب المزور كأي ضيف مدعو!! وأسدلت الستور بين البيتين فأقاموا حاجزًا من الألمنيوم على حائط السور الفاصل بينهما حتى لا يكشف أحدهما بيت الآخر!!

لقد اختفت معالم الغداء الأسري الكبير الذي كان يجمعهما، وأصبحت لديهما أسرار يخفونها عن بعضهم وتولدت خلافات كبيرة من تفاعلات مواقف صغيرة لا مبالية.

حين تقدم شاب لصالح يخطب منه أخته نجلاء غير الشقيقة بصفته الأخ الأكبر في العائلة نبت جذر شيطاني التف على بعض المودة الباقية وابتلعها فثار عبد الله أخو المخطوبة لأن في الأمر انتقاصًا لمكانته واستخفافًا به ورد هذا الخاطب الكفؤ لا لشيء

سوى تفاهة عقولهم.. ولما حاولت وأخي عبد الرحمن النصح والتوجيه قيل لنا إن هذه مسألة شخصية لا يحق لأحد التدخل فيها!!

ليس هذا فحسب فلقد سافر في الصيف الماضي كل بيت على حدة، بل إلى جهة مختلفة وهذا يحدث لأول مرة منذ عرفا بعضهما.

إن العلاقة بينهما تزداد تنافرًا، انقطعت بينهما الهدايا التي كانت تزيد أواصر المحبة وتشعل العواطف في مناسبات عديدة كالنجاح والزواج والنفاس وغيرها... الآن لم يبق من هذا شيء!!

وحتى مزرعتهما الخاصة لم تقم بدور إيجابي حيال تدابرهم فأصبحت كل عائلة لا تذهب إلى المزرعة إلا حين تتأكد بما لا يدع مجالًا للشك أن الأخرى لن تخرج إليها، ليحلو لهم السمر والسهر والشوي مع الأقارب والأصحاب.

لقد باءت محاولة جمع الشمل بالفشل فكل واحدة منهما اعتذرت بأعذار ساذجة لا تدل إلا على حرصها على عدم الاجتماع!!

لماذا كل هذا التقاطع؟! ألستم إخوة ودمكم واحد ومالكم واحد وعرضكم واحد؟! لماذا تتركون كل هذه المساحة في قلوبكم لتملأها وساوس الشيطان وتهيؤات الحاسدين وشكوكهم؟!!

أم صالح أنت الأولى وأنت الكبيرة قدرًا، والكبير يحتوي الصغير ويضمه تحت جناحه ويتحمل الأذى منه وفي الحقيقة أنه لم يأت من أم عبد الله أي أذى ألا تذكرين ذات مرة حين قلت لي أنك لا تعلمين أيكما الأثيرة عند أبي صالح؟ فلماذا تسمعين من الناس حديثًا ينقصه الوضوح والإخلاص؟!

أم عبد الله: أم صالح مثل أختك مصيركما مشترك وربما كان من الأجدر بكما أن تقتربا من بعضكما وتشدا أزر بعض بعد أن فقدتما السند لتصمدا أمام عواصف الحياة

وتبنيا جدارًا صلبًا لا تهزه النوائب، ثقا أنكما إن فعلتما ذلك فقد أحسنتما إلى أبنائكما أولًا وأخيرًا..أحسن الله لكما الخاتمة وجعل الآخرة همكما ووقى الجميع شر الشيطان وكيده(*).

«أخت زوجكم»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

موعظة بليغة في المستشفى

دخلت على مريض في المستشفى.. فلما أقبلت إليه.. فإذا رجل قد بلغ من العمر أربعين سنة.. من أنضر الناس وجهًا.. وأحسنهم قوامًا.. لكن جسده كله مشلولٌ لا يتحرك منه ذرة.. إلا رأسه وبعض رقبته.. دخلت غرفته.. فإذا جرس الهاتف يرن.. فصاح بي وقال: يا شيخ أدرك الهاتف قبل أن ينقطع الاتصال.. فرفعت سماعة الهاتف ثم قربتها إلى أذنه ووضعت مخدة تمسكها.. وانتظرت قليلًا حتى أنهى مكالمته.. ثم قال: يا شيخ.. أرجع السماعة مكانها.. فأرجعتها مكانها.. ثم سألته: منذ متى وأنت على هذا الحال؟ فقال: منذ عشرين سنة.. وأنا أسير على هذا السرير.. وحدثني أحد الفضلاء أنه مر بغرفة في المستشفى.. فإذا فيها مريض يصيح بأعلى صوته.. ويئن أنينًا يقطع القلوب.

قال صاحبي: فدخلت عليه.. فإذا هو جسده مشلولٌ كله.. وهو يحاول الالتفات فلا يستطيع.. فسألت الممرض عن سبب صياحه.. فقال: هذا مصاب بشلل تام.. وتلف في الأمعاء.. وبعد كل وجبة غداء أو عشاء.. يصيبه عسر هضم.. فقلت له: لا تطعموه طعامًا ثقيلًا.. جنبوه أكل اللحم.. والرز.. فقال الممرض: أتدري ماذا نطعمه.. والله لا ندخل إلى بطنه إلا الحليب من خلال الأنابيب الموصلة بأنفه.. وكل هذه الآلام.. ليهضم هذا الحليب.. وحدثني آخر أنه مرّ بغرفة مريض مشلول أيضًا.. لا يتحرك منه شيء أبدًا.. قال: فإذا المريض يصيح بالمارين.. فدخلت عليه.. فرأيت أمامه لوح خشب عليه مصحف مفتوح.. وهذا المريض منذ ساعات.. كلما انتهى من قراءة الصفحتين أعادهما.. فإذا فرغ منهما أعادهما.. لأنه لا يستطيع أن يتحرك ليقلب الصفحة.. ولم يجد أحدًا يساعده.. فلما وقفت أمامه.. قال لي: لو سمحت.. اقلب الصفحة.. فقلبتها.. فتهلل وجهه.. ثم وجّه نظره إلى المصحف وأخذ يقرأ.. فانفجرت

باكيًا بين يديه.. متعجبًا من حرصه وغفلتنا.. وحدثني ثالث أنه دخل على رجل مقعد مشلول تمامًا في أحد المستشفيات.. لا يتحرك إلا رأسه.. فلما رأى حاله.. رأف به وقال: ماذا تتمنى.. فقال المريض: أنا عمري قرابة الأربعين.. وعندي خمسة أولاد.. وعلى هذا السرير.. منذ سبع سنين.. لا أتمنى أن أمشي.. ولا أن أرى أولادي.. ولا أن أعيش مثل الناس.. لكنني أتمنى أني أستطيع أن ألصق هذه الجبهة على الأرض ذلة لرب العالمين.. وأسجد كما يسجد الناس.. وأخبرني أحد الأطباء أنه دخل في غرفة الإنعاش على مريض.. فإذا شيخ كبير.. على سرير أبيض وجهه يتلألأ نورًا.

قال صاحبي: أخذت أقلب ملفه.. فإذا هو قد أجريت له عملية في القلب.. أصابه نزيف خلالها.. مما أدى إلى توقف الدم عن بعض مناطق الدماغ.. فأصيب بغيبوبة تامة.. وإذا الأجهزة موصلة به.. وقد وضع على فمه جهاز للتنفس الصناعي يدفع إلى رئتيه تسعة أنفاس في الدقيقة.. كان بجانبه أحدُ أولاده..سألته عنه فأخبرني أن أباه مؤذن في أحد المساجد منذ سنين.. أخذت أنظر إليه.. حركت يده.. حركت عينه.. كلمته.. لا يدري عن شيء أبدًا.. كانت حالته خطيرة.. اقترب ولده من أذنه وصار يكلمه.. وهو لا يعقل شيئًا.. فبدأ الولد يقول.. يا أبي.. أمي بخير.. وإخواني بخير.. وخالي رجع من السفر.. واستمر الولد يتكلم.. والأمر على ما هو عليه.. الشيخ لا يتحرك.. والجهاز يدفع تسعة أنفاس في الدقيقة.. وفجأة قال الولد.. والمسجد مشتاق إليك.. ولا أحد يؤذن فيه إلا فلان.. ويخطئ في الأذان.. ومكانك في المسجد فارغ.. فلما ذكر المسجد والأذان.. اضطرب صدر الشيخ.. وبدأ يتنفس.. فنظرت إلى الجهاز فإذا هو يشير إلى ثمانية عشر نفسًا في الدقيقة.. والولد لا يدري.

ثم قال الولد: وابن عمي تزوج.. وأخي تخرج.. فهدأ الشيخ مرة أخرى.. وعادت الأنفاس تسعة.. يدفعها الجهاز الآلي.. فلما رأيت ذلك أقبلت إليه.. حتى

وقفت عند رأسه.. حركت يده.. عينه.. هززته.. لا شيء.. كل شيء ساكن.. لا يتجاوب معي أبدًا.. تعجبت.. قربت فمي من أذنه ثم قلت: الله أكبررر.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. وأنا أسترق النظر إلى جهاز التنفس.. فإذا به يشير إلى ثمان عشرة نفس في الدقيقة.. فلله درهم من مرضى.. بل والله نحن المرضى.. نعم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧-٣٨].

هذا حال أولئك المرضى.. فأنت يا سليمًا من الأمراض والأسقام.. يا معافىً من الأدواء والأورام.. يا من تتقلب في النعم.. ولا تخشى النقم.. ماذا فعل الله بك فقابلته بالعصيان.. بأي شيء أذاك.. أليست نعمه عليك تترى.. وأفضاله عليك لا تحصى؟ أما تخاف.. أن توقف بين يدي الله غدًا.. فيقول لك.. يا عبدي ألم أصح لك في بدنك.. وأوسع عليك في رزقك.. وأسلم لك سمعك وبصرك.. فتقول بلى.. فيسألك الجبار: فلم عصيتني بنعمي.. وتعرضت لغضبي ونقمي.. فعندها تنشر في الملأ عيوبك.. وتعرض عليك ذنوبك.. فتبًا للذنوب.. ما أشد شؤمها.. وأعظم خطرها.. وهل أخرج أبانا من الجنة إلا ذنب من الذنوب.. وهل أغرق قوم نوح إلا الذنوب.. وهل أهلك عادًا وثمود إلا الذنوب.. وهل قلب على قوم لوط ديارهم.. وعجل لقوم شعيب عذابهم.. وأمطر على أبرهة حجارة من سجيل.. وأنزل بفرعون العذاب الوبيل.. إلا المعاصي والذنوب(*).

(*) كتاب «في بطن الحوت» للشيخ/ محمد العريفي.

خزينة الهفوات والزلات؟!

حين تسير في الاتجاه الخاطئ تحتاج من يرشدك ويأخذ بيدك إلى الاتجاه الصحيح، وحين تمشي في الاتجاه الصحيح تحتاج من يشجعك ويدعمك حتى لا تزيغ عنه.

أما حين تتعثر مئة مرة قبل أن تصل إلى الطريق الصحيح ثم حين تسلكه تجد من يثبطك ويسخر منك ويذكرك بكل هذه المرات فكيف يمكنك أن تستمر؟!!

إن حالي مع زوجي كحال هذا السائر المتعثر، فمضى عشرون عامًا من زواجنا لم تنسه بعد تلك الهفوات والعثرات المعتادة في بداية كل حياة زوجية، فهو يملك ذاكرة كمبيوترية تحتفظ بكل هذه الزلات لتعرضها كلما دب خلاف أو عنَّ له أن يتفكه!! ذلك التفكه السمج الثقيل!!

حين تزوجت شعرت أن زوجي كتاب جديد يجب أن أقرأ منه كل يوم صفحة أو اثنتين حتى أفهمه ثم أعود لقراءته من جديد حتى أستوعبه جيدًا، حاولت أن أتعرف على طباعه، أن أبحث عن مكامن الرضا في قلبه، وفي عملية البحث هذه واجهني بالسخرية والاستهزاء أمام كل صعوبة تلحقني.

ثم أيضًا هناك أهله عشت معهم شطرًا من حياتي، وكانت تدب بيننا الخلافات وتختلف وجهات نظرنا فتنفر نفوسنا بعض الوقت وهذا كله ناتج عن عدم فهمي لنفسياتهم ودراستها جيدًا.

ولكن بعد هذه الحفريات النفسية الشاقة وبعد عدد غير قليل من المواجهات اتضحت لي الصورة واستطعت الوصول إلى مبتغاي، وتعلمت أشياء كثيرة، واكتسبت معارف عديدة وصرت كما يقولون ربة بيت من الدرجة الأولى، وعرفت كيف أكسب

قلوب من حولي وكيف أتودد لهم وأدركت أن هناك أمورًا هامشية لا تعدو أن تكون كذلك فلماذا نضخمها ونجعلها تتصدر اهتماماتنا؟! فصفت قلوبنا ومحا البعد ما في نفوسنا من غشاوة الماضي، ووضعت قدمي على الطريق الصحيح وانتظرت من زوجي التشجيع والمؤازرة فهذه نقلة مهمة في حياتنا، إلا أن زوجي خيّب ظني وفاجأني بتهكمه وسخريته ونشره لكل أخطاء الماضي ورصده لها جيدًا.

فحين عدنا من زيارة قصيرة لأخته (آمنة) ثنيت عليها وعلى حسن استقبالها فقال لي هازئًا (ألست كنت تقولين إنها لا تطيقك)!!

لقد دهشت لهذا الكلام كان هذا في الماضي في زمن مختلف نحن أبناء اليوم. وفي مرة كانت عندنا أخته (ليلى) وحين دخلنا المطبخ لإعداد العشاء قال: (لا تتخاصما على كمية الملح في الطعام أو على مقدار الأرز، الأفضل أن تدخل واحدة منكما المطبخ) تذكيرًا بمواقفنا السابقة.

ومازال إلى الآن يذكرني بكيفية استقبال ضيوفي والاحتفاء بهم مؤكدًا أنني كنت في السابق أسبب له حرجًا مع الآخرين لشدة حيائي وبرودي في استقبالهم. حقًا لكن هذا في السابق أما الآن فلقد تغير الوضع كثيرًا.

وهو دائمًا يذكرني بسالف عهدي حين كنت لا أجيد إلا نوعًا واحدًا من الحلويات بقوله: لقد مل أصدقائي منه، كنت أحمل هم الدورية حين يأتيني الدور لهذا السبب!! لقد صرت أسعى لجعل سفرة طعامي لذيذة وشهية وجديدة كل يوم ومع هذا لم أسلم من الاستهزاء. هو هكذا دائمًا مازال يثبتني ويشعرني بعدم الأمان إنه مازال لا يثق بي وربما إنه يستكثر مني بعض الأمور، وحتى لو فعلت ما يرضيه فيبدو أن الصورة الأولى انطبعت في ذاكرته ولم يستطع منها خلاصًا أو أنه لا يريد أن يمحوها لأنه يتلذذ بتحقيري.

هل تذكرين حين فعلت ذلك الشيء؟! كنت ساذجة!! يالك من غبية هل تذكرين موقفك من فلانة؟!! ما هذه الصداقة المتينة بينكما كنت في السابق تتمنين موتها..!! كنت في السابق.. نعم كنتُ في السابق لكنني تغيرت الآن وأصبحت شيئًا آخر. هل تصدق - يا زوجي الكريم - أنني بت أتمنى البقاء على مواقفي السابقة وإن كانت خطأ ولا الرجوع عنها حتى لا أسمع كلامًا يسمم البدن ويجرح المشاعر، لقد تمنيت ألا أتغير أو أتحسن أبدًا لأنني في كلا الحالين سأسمع شاكيًا ومهزئًا وساخرًا يبدو أنني الآن سأسلك الطريق الخطأ.. بسببك(*).

«زوجتك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

رحيل نورا

بدت أختي شاحبة الوجه نحيلة الجسم... ولكنها كعادتها تقرأ القرآن الكريم... تبحث عنها تجدها في مصلاها.. راكعة ساجدة رافعة يديها إلى السماء.. هكذا في الصباح وفي المساء وفي جوف الليل لا تفتر ولا تمل...

كنت أحرص على قراءة المجلات الفنية والكتب ذات الطابع القصصي.. أشاهد الفيديو بكثرة لدرجة أنني عُرفتُ به.. ومن أكثر من شيء عُرفَ به.. لا أؤدّي واجباتي كاملة ولست منضبطة في صلواتي.. بعد أن أغلقت جهاز الفيديو وقد شاهدت أفلامًا متنوعةً لمدة ثلاث ساعات متواصلة.. ها هو الأذان يرتفع من المسجد المجاور.. عدت إلى فراشي..

تناديني من مصلاها.. نعم ماذا تريدين يا نورة؟

قالت لي بنبرة حادة: لا تنامي قبل أن تُصلي الفجر..

أوه.. بقى ساعة على صلاة الفجر وما سمعتيه كان الأذان الأول...

بنبرتها الحنونة هكذا حي حتى قبل أن يصيبها المرض الخبيث وتسقط طريحة الفراش... نادتني.. تعالي أي هناء بجانبي.. لا أستطيع إطلاقًا رد طلبها.. تشعر بصفائها وصدقها.. لا شك طائعًا ستلبي. ماذا تريدين...؟

اجلسي.. ها قد جلست ماذا لديك..؟ بصوت عذب رخيم: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

سكتت برهة.. ثم سألتني.. ألم تؤمني بالموت؟ بلى مؤمنة.. ألم تؤمني بأنك ستحاسبين على كل صغيرة وكبيرة..؟ بلى.. ولكن الله غفور رحيم.. والعمر طويل..

يا أختي.. ألا تخافين من الموت وبغتته؟. انظري هند أصغر منك وتوفيت في حادث سيارة.. وفلانة.. وفلانة. الموت لا يعرف العمر.. وليس مقياسًا له..

أجبتها بصوت الخائف حيث مصلاها المُظلم..

إنني أخاف من الظلام وأخفتيني من الموت.. كيف أنام الآن.. كنت أظن أنك وافقت للسفر معنا هذه الإجازة..

فجأةً... تحشرج صوتها واهتز قلبي.. لعلي هذه السنة أسافر سفرًا بعيدًا.. إلى مكان آخر.. ربما يا هناء.. الأعمار بيد الله.. وانفجرت بالبكاء..

تفكرت في مرضها الخبيث وأن الأطباء أخبروا أبي سرًا أن المرض ربما لن يمهلها طويلًا.. ولكن من أخبرها بذلك.. أم أنها تتوقع هذا الشيء.. ما لك تفكرين؟ جاءني صوتها القوي هذه المرة..؟

هل تعتقدين أني أقول هذا لأنني مريضة؟ كلا.. ربما أكون أطول عمرًا من الأصحاء.. وأنت إلى متى ستعيشين.. ربما عشرون سنة.. ربما أربعون.. ثم ماذا.. لمعت يدها في الظلام وهزتها بقوة.. لا فرق بيننا كلنا سنرحل وسنغادر هذه الدنيا إما إلى جنة أو إلى نار.. ألم تسمعي قوله الله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؟. تصبحين على خير..

هرولتُ مسرعةً وصوتها يطرق أذني.. هداك الله.. لا تنسي الصلاة..

الثامنة صباحًا.. أسمعُ طرقًا على الباب.. هذا ليس موعد استيقاظي.. بكاء.. وأصوات.. يا إلهي ماذا جرى..؟ لقد تردت حالة نورة.. وذهب بها أبي إلى المستشفى.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. لا سفر هذه السنة.. مكتوب عليّ إلقاء هذه السنة في بيتنا بعد انتظار طويل..

عند الساعة الواحدة ظهرًا.. هاتفنا أبي من المستشفى.. تستطيعون زيارتها الآن هيا بسرعة.. أخبرتني أمي أن حديث أبي غير مطمئن وأن صوته متغير.. عباءتي في يدي..أين السائق.. ركبنا على عجل.. أين الطريق الذي كنت أذهب لأتمشى مع السائق فيه يبدو قصيرًا.. ماله اليوم طويل.. وطويل جدًا..

أين ذلك الزحام المحبب إلى نفسي كي التفت يمنة ويسرةً.. زحام أصبح قاتلًا ومملًا.. أمي بجواري تدعو لها. إنها بنت صالحة ومطيعة.. لم أرها تضيع وقتها أبدًا..

دلفنا من الباب الخارجي للمستشفى.. هذا مريض يتأوه.. وهذا مصاب بحادث سيارة. وثالث عيناه غائرتان.. لا تدري هل هو من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة.. منظر عجيب لم أره من قبل...صعدنا درجات السلم بسرعة..إنها في غرفة العناية المركزة.. وسآخذكم إليها.. ثم واصلتِ الممرضة إنها بنت طيبة وطمأنت أمي أنها في تحسن بعد الغيبوبة التي حصلت لها..

ممنوع الدخول لأكثر من شخص واحد.. هذه هي غرفة العناية المركزة.. وسط زحام الأطباء وعبر النافذة الصغيرة التي في باب الغرفة أرى عيني أختي نورة تنظر إلي وأمي واقفة بجوارها.. بعد دقيقتين خرجتْ أمي التي لم تستطع إخفاء دموعها.. سمحوا لي بالدخول والسلام عليها بشرط أن لا أتحدث معها كثيرًا.. دقيقتين كافية لك..

كيف حالك يا نورة..؟ لقد كنت بخير مساء البارحة.. ماذا جرى لك.. أجابتني بعد أن ضغطت على يدي: وأنا الآن ولله الحمد بخير.. الحمد لله ولكن يدك بادرة.. كنت جالسة على حافة السرير ولامست ساقها.. أبعدته عني.. آسفة إذا ضايقتك.. كلا ولكني تفكرت في قول الله تعالى: «**والتفتِ السَّاقُ بالسَّاق إلى ربك يومئذ المساق**» عليك يا هناء بالدعاء لي فربما استقبل عن قريب أول أيام الآخرة.. سفري بعيد وزادي قليل.

سقطت دمعة من عيني بعد أن سمعت ما قالت وبكيت.. لم استمرت عيناي في البكاء.. أصبح أبي خائفًا عليّ أكثر من نورة.. لم يتعودوا هذا البكاء والانطواء في غرفتي..

مع غروب شمس ذلك اليوم الحزين.. ساد صمت طويل في بيتنا.. دخلت عليّ ابنة خالتي.. ابنة عمتي.. أحداث سريعة.. كثر القادمون.. اختلطت الأصوات.. شيء واحد عرفته.. نورة ماتت. لم أعد أميز من جاء.. ولا أعرف ماذا قالوا..

يا الله.. أين أنا وماذا يجري.. عجزت حتى عن البكاء.. فيما بعد أخبروني أن أبي أخذ بيدي لوداع أختي الوداع الأخير.. وأني قبلتها.. لم أعد أتذكر إلا شيئًا واحدًا.. حين نظرت إليها مسجاه.. على فراش الموت.. تذكرت قولها: والتفتِ الساق بالساق) عرفت حقيقة أن (إلى ربك يومئذ المساق).

لم أعرف أنني عدت إلى مصلاها إلا تلك الليلة..

وحينها تذكرت من قاسمتني رحم أمي فنحن توأم.. تذكرت من شاركتني همومي.. تذكرت من نفّست عني كربتي.. من دعت لي بالهداية.. من ذرفت دموعها ليالي طويلة وهي تحدثني عن الموت والحساب.. الله المستعان..

هذه أول ليلة لها في قبرها.. اللهم ارحمها ونوّر لها قبرها.. هذا هو مصحفها.. وهذه سجادتها.. وهذا.. وهذا.. بل هذا هو الفستان الوردي الذي قالت لي سأخبئه لزواجي.. تذكرتها وبكيت على أيامي الضائعة.. بكيت بكاء متواصلًا.. ودعوت الله أن يرحمني ويتوب عليّ ويعفو عني.. دعوت الله أن يثبتها في قبرها كما كانت تحب أن تدعو.. فجأة سألت نفسي ماذا لو كانت الميتة أنا؟ ما مصيري؟ لم أبحث عن الإجابة من الخوف الذي أصابني.. بكيت بحرقة..

الله أكبر.. الله أكبر.. ها هو أذان الفجر قد ارتفع.. ولكن ما أعذبه هذه المرة..

أحسست بطمأنينة وراحة وأنا أردّد ما يقوله المؤذن.. لفلفت ردائي وقمت واقفة أصلي صلاة الفجر.. صليت صلاة مودع.. كما صلتها أختي من قبل وكانت آخر صلاة لها.. إذا أصبحت لا أنتظرُ المساء..وإذا أمسيتُ لا أنتظرُ الصباح(*)..

(*) «الزمن القادم» لعبد الملك القاسم – الجزء الأول.

جنيت على ابنتي بأنانيتي

بدت علي ملامح الجمال والجاذبية منذ صغري، فكثر خطابي قبل أن أعرف معنى الزواج وأصوله وأسس الحياة الزوجية، لا أخفي عليكم كان بي شيء من الغرور رغم أنني لم أكن أدرك أنه غرور، ومبعثه كلمات الإطراء وعبارات المدح التي كنت أسمعها ممن حولي وكلها تدور حول شيء ليس لي بد فيه ولا دور ألا وهو الجمال، غير أن أيًا من تلك العبارات لم تكن تثني على خلقي أو ذكائي أو حلمي، فقط انصب اهتمام الآخرين بجمالي، وكنت أطرب حقًا لتلك العبارات وتكفيني وتشبع نفسي ولا أطمع في إطراء من نوع آخر.

فاز بي أحد الخُطّاب، وتزوجت وأنا صغيرة، كنت أدلل نفسي أمام زوجي وكان لشدة إعجابه بي يبتسم لي حين أجد راحتي في مواضع الدلال، لكنه في قرارة نفسه لم يكن مقتنعًا بهذا المبدأ، أنجبنا (أريج) ونحن في حياة ملؤها الحب المتدفق من زوجي، والرغبة في الدلال الدائم من جهتي، مثل كل الخلافات الصغيرة والمشادات العابرة التي تحدث في كل البيوت، كانت تعتري حياتنا بعض لحظات التعكير والشوائب، بيد أنها كانت لا تتلاشى مثلما يحدث عند كل الناس، بل كانت تكبر، وتتسع لأن طرفي الحديث لم يكونا على قدرٍ من الوعي الذي يستطيع إيصال السفينة إلى بر الأمان، فزوجي كان يدفعه الكبرياء وعقدة الرجل الشرقي فلا يبدر منه أي اعتذار مهما أخطأ في حقي، وإن كان يملأ أشرعتي الإحساس بالغرور، والشعور بأنني يجب أن أدَلَّل، فكنت أحرص على عدم التنازل عن موقفي مهما كان الأمر، وكان يقف من خلفي (إبليس) ويقول لي: دعيه يضرب رأسه بالجدار، فهناك ألف مَنْ يتمنى أن يُقَبِّل (قدمك) وهكذا سرنا في طرقيّ نقيض حتى وصلنا إلى نقطة الانفصال دون أن يحفظ أحدنا كرامة الآخر، ودون وضع أي اعتبار للضحية المسكينة (أريج).

نعم طلقني زوجي وظلت أريج معي في منزل أهلي، وعزم هو على عدم العودة إليَّ أبدًا وكنت عازمة على عدم الرجوع إليه مهما كان السبب. في هذه الأثناء ظهر لي زوج جديد، وتقبله أهلي ووافقوا عليه، وكذلك نال إعجابي وقبولي، لكنه اشترط عليَّ ألا اصطحب ابنتي بل أتركها في منزل أبي، حيث كانت والدتي قد توفيت منذ بضع سنوات، فقبلت بذلك وتركت (أريج) تقاوم الحياة بعيدًا عن والديها، وكان والدها قد تزوج من أخرى، وشق طريقه في الحياة. مرت السنوات، وأنجبت من الزوج الثاني بنين وبنات وكبرت (أريج) لكن بيت الأسرة الكبيرة صار مقفرًا، حيث تزوج إخوتي وكبر والدي وصار طريح الفراش، وتقوم زوجة أكبر إخواني بخدمته، وتاهت (أريج) في دروب الحياة، وصارت في سن الزواج وكرهت المكوث بين جدران البيت.

وحينما تقدم إليها أحد الشباب، لم نتمهل كثيرًا حتى نستقصي عن أصله وفصله وسلوكه، بل كان قدومه بردًا وسلامًا علينا جميعًا فباركنا زواجها، وهي كانت كالغريق الذي وجد مُنقذًا ينتشله من الغرق، فأمسكت به بكلتا يديها، لكنها لم تكن تعرف شيئًا عن المستقبل المظلم الذي كان ينتظرها خلف (الأكمة) تم زواجهما وانطلق بها إلى مدينة أخرى، وانقطعت أخبارهما إلا من مهاتفات متقطعة بين الحين والآخر، ويبدو أن زوجها كان مدمن مخدرات، وبعد توقفه عن العمل، بسبب تأخيره المتكرر وإهماله، صار يتاجر فيها، فانغمست هي معه في حياته المليئة بالمغامرات، فأنجبوا عددًا من البنين والبنات، لكن الأسرة صارت مفككة ومنهارة، ومنزلهم أصبح كالنادي يدخل فيه مَنْ دخل ويخرج مَنْ خرج، وغالبية مرتاديه من ذوي الأخلاق السيئة والمدمنين وما إلى ذلك، ولم نكن نعرف شيئًا عن ذلك حتى تم القبض عليهما، إثر حملة تفتيش وعثر على ممنوعات بحوزتهما فأدينا بجريمتهما، ولم تكن القضية ماذا يحدث لأريج وزوجها، بل ما هو مصير الصغار الذين تركاهم خلفهما؟؟.

أما أنا فإنني نادمة، وأتحرق ألمًا وحسرة، لأنني كنت السبب في انهيار تلك الأسرة بأنانيتي الشديدة وحبي لنفسي، والبحث عن راحتي دون مراعاة مستقبل ابنتي حتى آلت إلى هذا المصير المظلم، ولا ألوم أحدًا إلا نفسي، ولكن جاء ندمي في وقت لا ينفع فيه الندم(*).

❀❀❀

(*) موقع «صيد الفوائد» نقلًا من مجلة «بنات اليوم» العدد الخامس.

العنترية الهشة

زوجي «قرقوش» هذا ليس اسمه بالطبع لكنه كناية عن الدور الذي يتقمصه في حضور أهله، فهو طيب ورقيق معي إذا كنا في بيتنا أما إذا كنا عند أهله أو معهم فهو يتحوّل إلى شيء آخر.. شخص غريب لا أعرفه قاسٍ وغليظ، إنه لا يعاني انفصامًا في الشخصية لكنه يفعل ذلك بمحض إرادته تحت ستار شيء اسمه المجاملة ومراعاة شعور الآخرين هكذا يزعم.

فعندما نكون عند أهله لا يمكن بحال أن يكلمني أو يشاركني الحديث إنه يتحاشى حتى أن تقع عينه على عيني، وفي المرات التي يكون حديثي محتاجًا إلى تعقيب منه أو توضيح إما أن يصم أذنيه كأن لم يسمع أو يتحدث وعيناه على لوحة في الجدار!!! وعذره أنه من العيب أن يأخذ ويعطي في الكلام معي عند أمه وأخواته!! وكأنني أتحدث بما لا يليق أو لكأني قد تجاوزت الحد المعقول!!

وذات مرة كنت عند أهله أيضًا وجد على قميص إبراهيم بقعًا بفعل الحلوى وكنت سأغير له ملابسه بعد الغداء، فجاءني وهو ينفخ الهواء من أنفه وزعق بكل قوته!! ليسمع من في البيت ونعتني بالإهمال واللامبالاة على الملأ.

أين المجاملة ومراعاة شعور الآخرين هنا؟! لا أعرف ما علاقة إهانته لي بمجاملة أهله؟ إنه في بيتنا لا يفعل ذلك أبدًا.. يتفهم الوضع تمامًا.

إن اجتماعي بأمه وأخواته شيء جميل حين لا يكون معنا، فأعصابي ترتخي وتقاسيم وجهي تتمدد وأساريري تنشرح، لقد صرت أتحين الفرصة التي يكون فيها على موعد مع أحد لأذهب إلى أهله حتى لا يكون معنا ولا يجلس معنا.

إنه أحيانًا يتعمد الإساءة إليَّ أو الإعراض عني في وجودهم، أسأله مثلًا متى سيعود ليأخذنا فلا يجيبني، لقد تعلمت أن أرسل ابنتي إليه لتسأله عما أريد بصوت خفيض ثم تعود لتصب الجواب في أذني همسًا، مرة سألتني أخته عن المحل الذي اشتريت منه حذاء إبراهيم وكنت قد نسيت فحاولت تجاهل الموضوع حتى أرسلت ابنتي إليه لتسأله بشكل سري.

حقًا لقد كرهت بسبب تصرفاته الاجتماع مع أهله وكرهت أكثر وأكثر السفر معهم، فهذا وحده كاف لأن يلغي أهميتي عنده، ويشعرني بتعاستي، وبأنني حمل ثقيل وضيف ممل في بيتي.

إنه لا يكلمني ولا يجلس معي وإذا حاولت المبادرة بذلك تهرب مني كأنه يرتكب جرمًا أو يقترف إثمًا، تحدثنا عن ذلك المنتزه الجميل الذي عدنا منه للتو، وأبديت امتعاضي لغلاء الأسعار فيه مقارنة بغيره ثم تشعب بنا الحديث وعادت بنا أخته إلى مسألة غلاء الأسعار فبادر مشكورًا بالتعليق وتوضيح الأسباب الدامغة لذلك بصدر رحب ونفس سخية، وكأنني حين سألته في المرة الأولى وضعته في موقف صعب ومحرج!!

وفي السفر تبرز مشكلة أخرى وهي النزول إلى الأسواق فهو يرفض ذلك جملةً وتفصيلًا دون نقاش أو تفكير وحين أحاول مجادلته منفردة يبرر ذلك بأن أمه وأخواته لا يحبذن ذلك، أو لا يجدن رغبة إليه ومن المستحسن أن أفعل فعلهم، بينما لو طلبن هن هذا الأمر لفرض علي دون استشارة أو سؤال.

وأيضا هناك المشاركة في برنامج الرحلة، فأنا أظل صفرًا على الشمال في هذا، وغيري يُسأل ويُؤخذ برأيه والويل لي لو فتحت فمي بكلمة!!

إننا حين نسافر وحدنا يصبح زوجي وديعًا ساكنًا يسعى إلى إرضائي فيشركني في برنامج الرحلة، بل يترك لي الحرية غالبًا في تحديد الأماكن التي يجب أن نزورها، ثم إنه يأخذني إلى الأسواق نتجول في ردهاتها ونتبضع من بضائعها.

أنا لا أعرف لماذا يفعل زوجي ذلك كله؟ هل للتربية دور في ذلك؟ إن أمه وأخواته وأهله عمومًا طيبون، لم يبدر منهم ما يسوء أو يزعج، ثم إنهم لا يلمزون ولا يهمزون حتى أستطيع القول إنه يفعل ذلك إرضاءً لهم أو إسكاتًا لألسنتهم؟!!

لقد حاولت إفهامه مرارًا أن فعله هذا يضايقني، وأنه يهز صورتي في عيونهم، ويمحو شخصيتي، وتجرؤهم علي، لكن أذن طين وأذن عجين يقول إنه يفعل ذلك حتى يشعر أهله أنه ما زال ابنهم وأن بنت الناس التي هي أنا لم تستطع أن تنسيه أهله، إن بعض العنترية تفرح الأهل حتى لو كانت هشة كقشرة البيض، وحتى يستطيع زوجي الموازنة بيني وبين أهله أسلي نفسي بالنظر إلى الأمور من وراء هذه القشور الرقيقة، فاللب مازال جيدًا ونافعًا والحمد لله على كل حال(*).

«زوجتك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

الحب يبقى.. والجرح يرحل

بدأت قصتي حين ولدت (مها) لعمي الأبعد (ابن عم أبي) والذي كان يسكن في مدينة الرياض.. بينما نحن نسكن في إحدى القرى القريبة منها.. تصغرني بست سنوات هي.. لم أكن أعرف الكثير من عالم الصغار ولا أحب مداعبتهم حتى رأيتها كملاك طاهر يتربع على حجر والدتي التي اصطحبتني معها لزيارتهم حين جاؤوا لقريتنا لقضاء عطلة العيد..كانت كوردة ربيعية.. أزهرتها سحابة مشبعة بالمطر.. حملتها بإذن أمها وخرجت بها لمزرعة البيت وكانت المرة الأولى التي أحمل فيها وردة.. في شهرها الثامن..! لا أدري كيف استلطفتها.. واستظرفتها.. وأحببتها..! فكرت.. ربما لأن والدتي لم تنجب سوى الذكور..؟ وحين كنت ألاعبها حملتها بسرعة لأجعلها تطير في الهواء مما جعلها تضحك بشكل هستيري..لكنني ولفرط جهلي وقلة خبرتي في الصغار تماديت في رفعها إلى أعلى فاختل توازنها وسقطت من بين يدي..! لم أصدق نفسي حين رأيتها تسقط أرضًا ويرتطم رأسها الصغير بجذع النخلة الخشن الذي تسبب في جرح جبينها ونزف الدم منه..!!ورغم خوفي كطفل من العقوبة إلا أني لم أهرب.. بل أسرعت بها أحملها لوالدتها.. صرخت بي أمي: ماذا فعلت بها؟!! والكل يرقبني بنظرات حادة وأخذوها مني.. أخبرتهم بما حصل ووقفت في انتظار العقوبة ليرتاح ضميري الذي كاد يقتلني عذابًا وقلقًا..أما أمها.. التي كانت مشهورة بعقلها الراجح.. فلم تزد على قولها: هداك الله يا ولدي.. ثم انصرفت تغسل دماء الصغيرة..أقسم أني لم أكن راضيًا عن تلك العقوبة الباردة في نظري.

تمنيت لو أن إحداهن أمسكتني وضربت رأسي تمامًا كما حصل لـ (مها).. لكني جرجرت أقدامي وتواريت عن الأنظار.. وفي الغد سمعت والدتي تحادث والدتها

بالهاتف، أرخيت السمع لأطمئن قلبي.. الذي سكن وهدأ حينما سمعت أمي تقول.. الحمد لله.. الحمد لله إنها بخير. ومرت الأيام سريعة، وانقضى العيد، ورحلت عائلة (مها) إلى الرياض وذكراها عالقة بذهني..وقلت لنفسي: لا بأس.. حب الأطفال شيء معروف وشائع.. وسينتهي يومًا ما.. حين تكبر هذه الصغيرة..في العيد القادم انتظرتها بشوق، ورأيتها كالياسمينة على كتف أخيها الذي يكبرني بعام يتجول بها في أرجاء المزرعة.. رأيتها تمشي.. وتضحك.. وتتكلم بحروف عذبة.. جذبتني أكثر.. فازددت بهذه الندية تعلقًا..!وحين بدأت أحادث أخاها وأخفي رغبتي الملحة في حملها ومداعبتها.

لمحت خلف خصلاتها المتناثرة على ذلك الجبين الوضاء أثر ندبة جرح العام الماضي..! وعاودني شعور يستقر مؤلمًا بين أضلاعي.. إذ كيف أجرح مثل هذا الجبين.. المسقى بالطهارة والجمال..؟ومضت بعدها ثلاث سنوات.. وعائلتها لا تأتي لقريتنا أبدًا.. فرابطة والدها بالقرية انتهت بعد وفاة والدته رحمها الله.. وبلغت أنا الثالثة عشرة.. ومها في عامها السادس.. وكان زواج شقيقي الأكبر.. وعلمت من والدتي أنهم مدعوون للحفل وسيحضرون من الرياض.. لم أصدق أذني..!!

أيعقل..؟هل سأراها بعد كل هذا الغياب.. والسنين..؟!!وانتظرت ليلة الفرح بفارغ صبري.. وكلي أمل.. أن أراها.. وأهدئ من وجيب هذا المتخلف بين ضلوعي.. والذي يكاد يطير شوقًا وفرحًا..!وحانت الليلة.. وتسللت لمكان النساء متظاهرًا برغبتي في الحديث إلى إحدى عماتي، وهناك أرسلت نظراتي بحثًا عنها.. وتركت لقلبي الطريق ليعثر عليها.. فو الله ما أخطأها.. وكيف يخطئ من سكنته..؟ ها هي.. ترفل بثوب وردي كتفاحتي خديها.. وتتساقط خصلاتها المترفة بالغرور على كتفيها.. لكن طوق الورد على رأسها سمح لعيني أن تطلع على الندبة الصغيرة.. التي أصبحت بيضاء.. على حافة جبينها اليمنى.. خفق قلبي بشدة، عضضت على شفتي.. تمنيت لو اقتربت منها واعتذرت أو قلت أي شيء..!

لكنني خرجت مشيعًا باللوم والتوبيخ من والدتي التي تعتبرني رجلًا لا يليق بأن يبقى بين النساء..!وبقيت تلك الصورة في داخلي فترة ليست بالقصيرة.. الوردة الناعمة.. بالثوب الوردي.. وطوق الأزهار اللطيفة يحيط الوجه الحبيب.. ولكن الحلم كان أسرع رحيلًا.. لقد غادر أهلها من الغد مباشرة بعد انتهاء الحفل.. وطالت زيارتهم التالية لزيارة قريتنا.. فلم يأتوا لقريتنا إلا بعد خمس سنوات..!! أوصدت خلالها على مها الأبواب ولبست الحجاب، لقد انتقلت للمرحلة المتوسطة. ورجل مثلي في الثامنة عشرة لا يصلح أن ينظر إلى مثلها. حينما تخرجت من الثانوية أصررت على الالتحاق بجامعة الرياض، ورفضت رفضًا قاطعًا إكمال تعليمي في معهد القرية.. فطموحي كبير جدًا أيضًا.. وطموحي يستحق العناء والتضحيات.. طالما أن مها هي جزء من هذا الطموح.. بقيت طوال دراستي في سكن الجامعة الخاصة، وترددت كثيرًا على بيتهم بدعوة من أخيها الذي يشاركني الجامعة في تخصص آخر..أنهيت مشواري هذا بالحصول على الماجستير.. وانتشرت الفرحة حتى دخلت كل بيت في قريتنا.. وتراقصت الابتسامات زهوًا على شفاه والدي وافتخارًا بي.. وهمست أمي.. (فرحتي الكبرى.. هي يوم زواجك..!) وأشرق بداخلي شعور رائع.. بل.. أروع من الروعة ذاتها.. جمعت أصابعي لأحسب كم من السنوات تبلغ مها..؟ كم عمر ياسمينتي الآن..؟ وهوى داخلي شعور بالخيبة لما وجدتها لم تكمل الثامنة عشرة بعد، وأنا في الخامسة والعشرين.. تعثرت الكلمات على لساني.. وقلت لأمي.. (ادعي لي بالخيرة يا يمه..) ولكن.. بقي الإصرار ذاته في داخلي.. ولو كان..؟؟ستنهي مها الثانوية هذا العام، سأصرح أمي برغبتي بها.

وإن وافق أهلها كان بها.. وإن لم يوافقوا لصغرها.. فلأجلها أنتظر العمر كله..وحينما انتهت اختبارات الثانوية العامة ولم تعلن النتائج بعد في الصحف، طلبت

من صديق لي أن أعرف نتيجتها قبل النشر.. وبالفعل علمت بنجاحها بتقدير امتياز وبنسبة رائعة جدًا، فلم أتمالك نفسي.. رفعت سماعة الهاتف لأبشر أخاها بذلك، لكن والدته أخبرتني أنه غير موجود.. فسلمت عليها وعرفتها بنفسي فرحبت بي.. ثم زفيت لها خبر نجاح مها.. وأنني علمت به بعد أن هنأني أحد الأصدقاء على تفوقها ظنًا منه أنها أختي.. وأردت أن أبشركم.. وأبارك للجميع...! كم كانت فرحة أمها كبيرة.. ودعت لي كثيرًا.. وسمعتها تناديها.. لتزف لها الخبر وهي تغلق السماعة.. فلم أغلقها لعلي أسمعها صوت الفرح في نبراتها.. لكن الانقطاع كان الأقرب لسمعي..! وازدادت نشوتي.. وأصبح الإحساس بالغبطة يغمرني ويكبر على صدري.. إن ياسمينتي متفوقة.. ذكية.. وجميلة.. كما أعرفها منذ صغرها..! كبر الحلم.. حتى أصبح كاليقين.. وكنت أنتظر الفرصة المواتية لأبوح لوالدي بذلك..عدت للقرية حاملًا حلمي في صدري متلهفًا البوح به وإعلانه بعد أن ظل حبيس قلبي سنوات.. إذ المفاجأة الغير متوقعة تنتظرني..والدتي تحدث والدي عن ترتيبات سفر للرياض، ولوازم لها وللصغار، وأن أهلي سيكونون ضيوفي أسبوعًا كاملًا في شقتي بالرياض بعد شهر من الآن..وسألت عن سبب الزيارة المفاجأة.. وليتني لم أسأل.. بل ليت تلك اللحظات لم تمر علي.. إنه زواج مها...!من..؟ ومتى..؟؟.

هذا ما استطعت السؤال عنه والمفاجأة تكاد تقطع أنفاسي.. الجميع لاحظ فجيعتي في شكل عيني.. استدركت وقلت:معقول..؟ أوصلت إلى سن الزواج؟ مازلت أذكرها صغيرة جدًا..قالت أمي: الأيام تمضي سريعة.. صحيح هي صغيرة نوعًا ما.. لكنها عاقلة رزينة.. والوقت مناسب خصوصًا وأن الرجل كفء.. يا الله يا ولدي.. متى ستفرح قلبي..؟؟ قلت ولازلت أداري دهشتي.. وأكابر على الطعنات المتتالية التي تكاد تودي بي: من هو..؟ ابن جيرانهم.. من آل فلان..

وبدأت الأرض تميد من تحتي.. إنه رفيق أخيها.. لكنه لم يكن أقرب مني إليه..! يا إلهي..كيف للناس أن يعلنوا عن رغباتهم في الوقت المناسب.. بينما أنا أمسك بحلم صعب الكتمان في صدري سنوات..يا إلهي..ماذا يريد أهلها من رجل لا يربطهم به دم ولا قرابة..؟! أتراه يستحقها..؟ أيستطيع أن يحبها ويسعدها كما أشعر أني سأفعل ذلك..؟صحوت من دوامتي على صوت المؤذن، قمت للصلاة واهن القوى.. كسير الخاطر.. مجروح الفؤاد..هكذا أنا دومًا. الحزن يملأ حياتي.. والخيبة تبدو على ملامحي.. كنت وما زلت ضعيفًا عن إبداء رغباتي في الوقت المناسب.. فأنا ابن القرية البسيط الذي يحسب للكلمة ألف حساب.. ويضع قوانين العيب والنقد نصب عينيه.! تم الزواج..ورحلت مها عن عالمي..نعم أصبحت مها.. ولم تعد ياسمينتي.. إنها في ذمة رجل آخر.. ولست والله أتمنى لها إلا السعادة والهناء، وعرفت كما عرف غيري أنها سافرت للخارج مع زوجها لإكمال دراسته.. فشيعتها بدعواتي..وذات يوم.. ذهبت بطفلي الذي لم يتجاوز الثالثة لمدينة الألعاب، ففوجئت بابن عمي (أخو مها) ومعه طفلان.. أما الطفل فكان شديد الشبه بأبيه، وأما الطفلة.. والتي عرفت فيما بعد أنها برفقة خالها فقد أجابني شيء ما أنها هي.. مها الصغيرة. كأن السنوات توقفت تلك اللحظات ومن ثم رجعت للوراء..بقيت معه وقتًا طويلًا واقفين نتبادل الأحاديث والسؤال، ثم ودعني وهو يدعوني وأسرتي لزيارتهم لاسيما وأن مها عائدة للخارج قريبًا بعد إجازتها..ذهب الرجل من أمامي وأنا لازلت أتأمل جبين الطفلة لعلِّي أرى أثرًا للندبة فيه(*)..!

(*) موقع «صيد الفوائد»، نقلًا من مجلة «حياة» العدد (٦٨).

أنين أم

هدى الله بنات هذا الزمن.. فبعضهن لا يعرفن لكبير قدرًا ولا لأم فضلًا فلا يحترمن أمهاتهن ولا يحسن التعامل معهن وعند أي توجيه تعلو أصواتهن مستنكرات ومحتجات.

ابنتي ناهد إحدى هؤلاء، دائمًا تعارضني في كل شيء، لا تسمع كلامي، ولا تأخذ بنصائحي، وحين أعنفها مرات قليلة تصرخ في وجهي وترفع صوتها، فأنا في نظرها دقة قديمة لا أفهم مصطلحات هذا العصر ولا أحسن تفكيك رموزه.

لم نتفق أنا وهي على شيء أبدًا، حين تنزل من غرفتها متوجهة إلى المدرسة يزعجني منظرها؛ فشعرها مسرح بشكل لا يليق بالمدرسة وهذا الماكياج على وجهها يعرضها لسخط الإدارة فأعاتبها بلطف لكنها لا تستجيب وأشد عليها قليلًا فتثور ثائرتها، إذ إنني كل صباح أسمعها هذه الأسطوانة المملة التي لن تجعلها تحيد عن فعلها فما دامت مجتهدة في دروسها فلن يضرها ذلك!!

الله يهديها فهي لا يهمها رضاي ولا تبحث عن البر بي، كثيرًا ما نتخاصم عند الخياط على الموديل، وفي السوق على الأسعار، وفي البيت لكثرة النوم وقلة العمل، لم تقل مرة واحدة سأفعل هذا لأجلك ولا سأترك هذا من أجلك، بل تصر على رأيها وتجادلني بصوت عال كأنني واحدة من أخواتها الصغيرات.

مراهقة، غدًا تكبر وتعقل، وإذا تزوجت وعرفت طعم فراق والدتها ندمت على سوء تصرفها معي، هكذا حدثت نفسي لأخفف من حسرتها.

وتسارعت الأيام وتزوجت ناهد وكانت فترة تجهيزها عصيبة، إذ لا يمر يوم دون خناق ولا شقاق، تزوجت ناهد وما تغير في حالها شيء، الحفل الذي أقمته إكرامًا لأم

زوجها وأهله قامت معه الدنيا فخاصمتني على اليوم الذي لم يكن في نظرها مناسبًا، وكذا العشاء والضيوف الذين دعوتهم، أي أن ما عملته لم يكن مرضيًا لها، فقط حصلت على كم من عبارات القهر (فأنا لا أفهم، أتصرف حسب هواي، لا أستشير أحدًا، يجب أن أسألها مرة أخرى، توجه لي الكلام وكأنني تلميذة مشاغبة أتلقى تأديبًا من معلمتي.

قلت: إذا جاء الأولاد سيفيض معهم نبع الحنان والحب، وستنفتق بذرة الأمومة والتضحية وتسهل الطباع..وجاء الأولاد وبقيت ناهد على حالها لم تغيرها أحاسيس الأمومة العذبة ولا مشاعرها الرقيقة، بل إنها - هداها الله - صارت تصب جام غضبها عليَّ أحيانًا بدون سبب وفي أقل الأحوال تصد عني.

إذا ذكرتها بتقصيرها في حق أحد أقاربها لم تعر كلامي اهتمامًا يذكر، وإذا أرشدتها إلى الأصوب في بعض الأمور لم تأخذ به عنادًا وتكبرًا.

قلت لها ذات مرة: لماذا لا تذهبين لزيارة ابنة خالك؟ خالك عاتب عليك سنذهب يوم الخميس استعدي لذلك.

فأرعدت وأزبدت وقالت: أنا لم أعد صغيرة حتى توجهيني، إنها لا تستأهل الزيارة، فليغضب وليخبط رأسه في الجدار.

ولما سافر زوجها عدة أيام في الإجازة كانت عندنا واحتاجت إلى السوق، أو أنها تواعدت مع إحدى صديقاتها لم أشعر بها إلا وهي تقف بجانبي تخبرني بذلك، وبالرغم من أن ذلك اليوم غير مناسب لنا لأن أعمامها سيأتون للعشاء والسهر إلا أنها رفضت تأجيل ذهابها بحجة أنهم لن يأتوا إلا متأخرين.

وحين قلت لها: ولكننا نحتاجك في المطبخ؛ صرخت في وجهي بصوت عال لا دخل لي بذلك.. أنا ضيفة عندكم.. الذي دعاهم يتكفل بهم!!.

لم أشعر يومًا ما أنني أمها.. دائمًا هي كعود الثقاب.. سريعة الاشتعال تثور في وجهي وتعاملني بقسوة، لم تلن لي الجانب ولم تخفض جناح الذل من الرحمة، تقارعني الحجة بالحجة، وتجادلني بالتي هي أسوأ، وترد الكلمة بعشر، وكأني واحدة من أعدائها، بينما هي رقيقة، لطيفة العبارة مع صديقاتها، ومع من تحب، تجلس عندنا فترات طويلة، لا تفكر بشرب فنجان قهوة معي، ولو طلبت منها ذلك سردت عليَّ قائمة طويلة عن مضار القهوة عليَّ وليتها تسردها بلطف، بل بعنف وغلظة.

سامحك الله يا ابنتي فالكلمة الطيبة صدقة، والأقربون أولى بها، والجنة تحت أقدام الأمهات، ودعاء الأم لك أو عليك مجاب بإذن الله فاظفري بدعوة صادقة من أم حنون.. وفقك الله لما فيه الخير(*).

«والدتك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

غريب في بيته!!!

البيت سكن وراحة، أنس واستقرار، وحين يفقد خواصه تلك يصبح عذابًا لا يطاق.... في بيتي لا أعرف طعمًا للاستقرار ولا الهدوء، لا أملك الحرية المطلقة التي يتمتع بها الأزواج الآخرون في بيوتهم مع زوجاتهم وأبنائهم، عليَّ دائمًا أن أجامل وأتصنع لابد طبيعيًا. ذلك أن بيتي كالفندق.. يضاهي فنادق الخمس نجوم في الخدمة لكنه لا يماثل أي فندق في السعر، فخدماته دائمًا مجانية، وعلى حساب راحة أهله وعافيتهم.

ولأنني هنا في العاصمة وأهلي وأهل زوجتي هناك في مدينتنا صار بيتي فندقًا يأوي إليه كل من يأتي لينهي عملًا له أو يقضي حاجة ماسة.

هذا يأتي ليراجع دائرة حكومية أو يتتبع أثر معاملة ما فيعقل دابته أمام بيتي.. إذن لدينا اليوم ضيف على الغداء، لكن لا يكتفي بالغداء بل يمكث يومًا أو اثنين.

وتلك تأتي لتراجع مستشفى العيون وتحتاج لعمل الفحوصات والتحليل فتمكث أسبوعين تحبسني في بيتي في مجلس الرجال لا أدخل إلا بعد أن أتنحنح!!

وحين أرادت أخت زوجتي أن تجهز لعرسها بقيت عندنا شهرًا كاملا، كل يوم في السوق أو المشغل وبالتأكيد كنت السائق المثالي لهذا المهمة!! لا يحق لي أن أقول لا أو أعترض حتى لا يغضب أهلها علي، فهذا عيب في تقاليدنا مشين في حقها، فلك أن تتصور كيف كانت نفسيتي متعبة إذ إنني غريب حتى في بيتي.

لو كان الأمر مجرد حاجة وتقضي لجعلت عيني إحداهما فراشًا والأخرى لحافًا ولكن الوضع صار فوق الاحتمال، لقد تعدى حدوده المعهودة، فلم يعد بإمكاني أن أنام براحتي في البيت، أنا أجلس كما يحلو لي، أن أخرج مع زوجتي وأبنائي كالسابق.

جاء والد زوجتي لمراجعة طبيب القلب الذي يزوره بين الحين والآخر، وجاءت معه زوجته لتؤانسه وطبعًا لمن تترك أبناءها فجلبتهم معها لأنهم يريدون الذهاب للملاهي والأماكن الترفيهية الأخرى، فصارت زوجتي تخدم والدها المريض وتطبخ له طعامه الخاص، وتلك خلافات الأطفال الذين لا مهنة لهم إلا الشجار، وتجلس مع زوجة أبيها وتحادثها وتعزم لها الجارات وتأخذها في زيارات مماثلة كل هذا لترضي والدها، ثم تسقط على فراشها كالميت على نعشه دون حراك من شدة التعب والإعياء!!

إنني أقدرها كثيرًا وأعلم كم تعاني من هذه المسائل ولكنها تكتم غيظها وتصطنع ابتسامة على وجهها حتى لا تفعل ما يجعلها موضع انتقاد.

إن أهلي وأهل زوجتي طيبون، لكنهم لا يعلمون كم يسببون لنا من المتاعب بأفعالهم تلك. لم يعد في بيتنا موضع قدم للراحة، أناس يأتون وأناس يغادرون وعلينا أن نمهد لهم سبل الراحة والاستجمام وأن نقدم لهم مستلزمات الضيافة على طبق من ذهب.

أمي وأبي وكذا والدا زوجتي على الرحب والسعة، أما أن يتعدى الأمر كل من له صلة قرابة أو كل من يشبه اسمه اسم عائلتي فهذا غير منطقي.. إذن لمن وضعت هذه الشقق المفروشة وهذه الفنادق بجميع المستويات؟

إن مما يؤلمني كثيرًا أنني أسكن في العاصمة ذلك أن مستوى الخدمات عال، وجميع المراجعات الحكومية فيها ما يعني استمرار تدفق هذا السيل البشري، من أقاربي، ومن أبناء مدينتي إليها مما يجعلني في موقف حرج منهم، هل أفتح بيتي لهم وأفقد السكن والاطمئنان أم أغلقه في وجوههم وأكون محل انتقادهم وسخريتهم. متى يدرك أقاربي أنهم بهذا يؤذونني ويحولون بيتي إلى عذاب لا يحتمل(*).

«زوجك»

(*) مجلة «الدعوة».

آسف يا قلبي

كانت مها دومًا حلمي، حلمي الذي يراودني صباح مساء، أملي الذي عليه أصبح وأمسي.. غايتي التي لا غاية لي سواها ومناي الذي ناجيت به الليل والقمر وكل ما يدور في فلك المحبين..إن كانت لي أمنية فهي أن تصبح شريكة حياتي وإن كانت لي رغبة فهي أن تكون مها زهرة بستاني ودفق شرياني أحببتها حبًا.. كيف أصفه..؟ لا لن أحكي عن حبي لها.. فهو يُرى ويشعر به ولا يتحدث عنه.. حبها من ذلك النوع الذي يفجر بداخلك كل طاقة ممكنة لتستمتع به أكثر وأكثر.. وكلما اقتربت منها شعرت أنها ابتعدت عني أميالًا.. فالتهب حماسًا لأقطع المسافة الفاصلة بيني وبينها لأستحقها بجدارة.

مها.. لم تكن ككل البنات.. ولم تكن حلمي أنا وحدي فقط.. كانت حلمًا لكثير من أترابي.. كانت شمسًا إن أشرقت في المكان غطت على كل شيء.. وغمر نورها كل شيء.. كانت زهرة إن تفتحت خجلت منها كل زهرة.. جمالها.. دلالها.. شخصيتها.. طموحها.. ذكاؤها المتقد.. وثقتها بنفسها.. كل ذلك جعل من محبوبتي الماسة نادرة بين بنات جنسها..ولكن كيف؟ كيف أصل إليها والحظ يعاندني في كل مرة أحاول الاقتراب من زهرتي.. فأنا قد حصلت على شهادة جامعية بمعدل متوسط وتخصص عادي جدًا انضممت به إلى قائمة البطالة المقنعة بعملي الروتيني بإحدى الوزارات وعلى بند الأجور.. بالكاد مرتبي يكفي مصاريف شقتي بالرياض التي أقتسمها مع زملائي العزاب وسيارتي المتهالكة ومصاريف شخصية بسيطة.. وفي أول الشهر.. يكون جيبي تمامًا كثلاجة الشقة.. كلها خاوية فارغة.. فأعود لذات الروتين من الاستدانة أو الذهاب لوالدي في القرية مدعيًا أني اشتقت لهم لآخذ ما يكفيني حتى

نهاية الشهر.. ألتفت فأجد من حولي إما أبناء مسؤولين كبار أو أثرياء وتجار.. يبدلون سياراتهم كل عام.. يزورون مقاهي ومطاعم بانتظام وكأن جيوبهم لا تخلو من المال مثلي..! بينما أجد أحيانًا أخرى من زملائي من يعمل بكبينة هاتف أو محل لبيع الخضار أو حتى ينسخ برامج الحاسوب ليبيعها بمبلغ رمزي يكفي ثمن عشاء في مطعم متوسط..!الحصول على الدورات أمر مكلف لمثلي.. والبحث عن عمل إضافي أمر مرهق.. ولكن.. ولكن مها.. سأعمل كل شيء لأستحق مها.. يطمع بمها غيري ممن يملكون جميع ما يملكه أبي وأعمامي ويطمح بها من يحمل الشهادات العليا والمناصب الرفيعة.. وأنا.. أنا لاشيء.. وطار حلمي..لقد تزوجت مها.. وأنا أصارع أحلامي.. تزوجت زياد.. طيار مدني.. برتبة مساعد طيار.. من عائلة معروفة.. حملها وأحلامها على جناح طائرته.. وبقيت أنا أتصارع مع أحلامي وطموحاتي الضحلة.. حاولت نسيانها والتشاغل عنها.. والإقرار بأنها ما عادت لي.. ولكني فوجئت يومًا ما أن أختي تخبرني أن (المسكينة) مها طلقت من زوجها.. وصبت جام غضبها (كعادة الإناث) على زوجها الذي لم يكن يحبها ولا يدللها.. يسافر عنها كثيرًا ويتركها وحيدة وهذا بالطبع مالا ترضاه مها التي عرف عنها دومًا أنها الرقم واحد في كل شيء.

وقررت المغامرة بأقل الخسائر.. أنا بإمكانياتي المتواضعة ومساعدة أبي وأعمامي وقروض من هنا وهناك..وهي بوضعها كمطلقة خرجت من تجربة أليمة.. وكانت المفاجأة.. أن قبلت بي دون شرط.. وتم كل شيء بسرعة..فإذا الحلم حقيقة.. وإذا مها زوجتي.. ومن أول ليلة.. كنت أكثر منها فرحة وارتباكًا.. بينما بدت هي كسيفة حزينة لأننا لم نقضي ليلتنا الأولى في أحد فنادق الخمس نجوم.. تغاضيت عن ذلك وحاولت تسليتها.. ولكني تعجبت.. لقد كانت نافرة مني بشكل واضح.. فقلت لعله خجل العروس وليته كان..ومن صباح الغد.. دارت تتفرج على شقتنا.. وبدأت تقارنها

بفيلتها السابقة وأنا أمشي خلفها وكأني أحترق من الداخل ولكنها لم تكن تشم رائحة احتراق إنسان يقبل الأرض التي تمشي عليها.. إن نظرت إلي زال عن قلبي كل ألم.. وإن ابتسمت – بعد جهد جهيد – رقصت الدنيا بين يدي..واستمرت (أيام العسل) بنفس الأسلوب.. أرقب كل حركة وكل إشارة منها عسى أن تكون راضية عني.. وهي تمعن أكثر وأكثر في التقليل من شأني وتذكيري دومًا بتواضع راتبي وسيارتي وحتى شكلي وهندامي رغم محاولاتي المستميتة أن أبدو بأفضل حال أما عروسي وحبيبتي لقد كانت كلماتها طعنات صغيرة تبكي قلبي العاشق لها.. ثم أصبحت طعناتها أقوى وأنفذ فهي تقارنني بزوجها السابق.. حتى بحديثه وأسلوبه وتفكيره.. وتسميني ابن القرية (القروي) وتضحك كثيرًا حين نتناول عشاءنا (الذي هلكت بتدبير مبلغه) في أحد المطاعم الفاخرة.. تضحك من عدم معرفتي بالأكلات الصينية والإيطالية والفرنسية وبعدم تناولي للطعام بالشوكة والسكين وعدم وعدم.. والقائمة تطول فكل ما فيَّ يبدو أنه لا يروق لها.. رغم أني أحاول تقبل الأمر بروح رياضية لعل وعسى أن تكف عن ذلك يومًا ما..قالت لي ذات يوم: حمد بليز.. سأذهب اليوم لحفلة ماجدة صديقتي في فيلتهم.. أرجو أن تتدبر أمر إحضار أية سيارة تليق بالمكان فنحن سنضطر للدخول بالسيارة لأقصى القصر وسترى صديقاتي بالتأكيد سيارتك (الجميلة م حاولت الضحك وافتعال المرح.. لكني كنت صامتًا أحدق فيها بألم.. فقلت: وهل من العيب أن ترى صديقاتك زوجك؟ وسيارته المتواضعة؟ فتلعثمت وبدا عليها الضيق.

ثم قالت: امممم.. في الحقيقة لا أرغب في تعليقات لا داعي لها.. العام الماضي عندما حضرت الحفلة مع زياد بسيارته الفارهة.. قاطعتها بغيظ قائلًا: كنت مفتخرة به. فصمتت.. ونظرت لي متحدية وقالت: وهل يضايقك..؟ قلت وأنا أصرّ على أسناني.. يضايقني تكرار هذا الأمر وأنت تعلمين كم هو مزعج بالنسبة لي.. فشمخت برأسها

بتعالٍ وغرور واضحين وقالت: لعلمك.. عندما ذهب بي إليها في العام الماضي.. أعطاني طقمًا فاخرًا وبوكيه ورد وقال: اشتريته هدية لصديقتك على ذوقي ومتأسف لذلك ولكني أحببت مفاجأتك وأنا الآن سأذهب لها خالية اليدين لأن حضرتك لم تستلم (القرشين) من عملك..واسترخت على الكنبة وكأنها أزاحت عن صدرها ثقلًا..فقلت وأنا ابتسم ابتسامة صفراء حزينة: (القرشين) هي التي جعلت أحلامي حقيقة.. وأنا أحمد ربي وأشكره على كل حال.. فانفجرت بوجهي ثائرة.. حتى أني احتضنت الوسادة الصغيرة وهي في ثورة غضبها أراقبها مشدوهًا..انطلق من فمها كلام كالرصاص.. وهي تتحدث بلا وعي.. خلاص.. قرفت.. كرهت هذه العيشة.. أنت وبيتك وعملك وأهلك وتصرفاتك وكل شيء فيك ممل قاتل.. ما الذي ضربني على أم رأسي وتركت زياد وعزه ونعيمه لأتزوجك.. لأنه فقط مشغول برحلاته.. يا لبلاهتي..! وأنت.. والتفتت إلي..أنت.. أتعلم؟ تزوجتك فقط لأغيظه.. ليعرف زياد أني لن أبقى بعده مطلقة في بيت أهلي بل أحببت أن يعرف أن الكل يتمناني.. والآن.. انتهت اللعبة.. ولا أستطيع الاحتمال أكثر.. ولا التمثيل أكثر.. ثم رمت بوجهي قنبلتها قائلة: طلقني!.

فو الله ما نبست ببنت شفة.. بقيت أنظر إليها مشدوهًا متألمًا.. وكأني على أحد مقاعد السينما أشاهد فيلمًا كتبت أنا قصته وأحداثه وأخرجته ببلاهتي وضعفي وحبي الخائر لها.. فتكشف لي بوضوح (بعد انتهاء العرض) كل شيء كان غائبًا عني.. ابتعاد أهلي عني بسبب سوء طباع زوجتي.. انعزالي رغم أني إنسان اجتماعي عن أصدقائي لأجل إرضائها والبقاء بجانبها دومًا كما تحب.. تذكرت قلة مواردي.. كثرة ديوني.. وحتى نقصان وزني وآلام القولون التي تعتصرني لكثرة تفكيري بتدبير أسباب السعادة.. لحبيبتي..! وهل هذا هو الحب؟ أو شقاء..؟ أم راحة وألفة ومودة ورحمة..؟

فآه من حبها المشقي المؤلم المزيف.. الذي اعتمد بالدَّرجة الأولى على قشور ومظاهر خدعتني.. فإذا جمال الروح هو الجمال الذي أرجوه وأطلبه.. وإذا مها الآن التي كانت أجمل البنات في عيني إذا هي أقبح من وقعت عليها روحي.. فوالله ما استمتعت معها بلحظة صفاء.. ولا كلمة حب.. ولا لمسة حنان.. ولكني اشتريت حرية قلبي.. وحياتي.. بكلمة رميتها بوجهها وودعتها للأبد.. داعيًا الله أن يسار عليها ويوفقها بعيدًا عني.. مها أنت طالق..! سئلت أعرابية: ما الهوى؟ قالت:هو: الهوان قد غلط في اسمه(*).

❀❀❀

(*) موقع «صيد الفوائد» نقلًا من مجلة «حياة» العدد (٥٢).